جامعة محمد الخامس
كلية الآداب

سلسلة الرحلات (2)
زيارية (1)

أنس الفقير وعز الحقير

لأبي العباس احمد الخطيب المشهير بابن قنفذ القسنطيني
المتوفى سنة 810 هـ. 1407 - 1408م

اعتنى بنشره وتصحيحه :

محمد الفاسي
رئيس الجامعة

أدولف فور
أستاذ بكلية الآداب سابقا

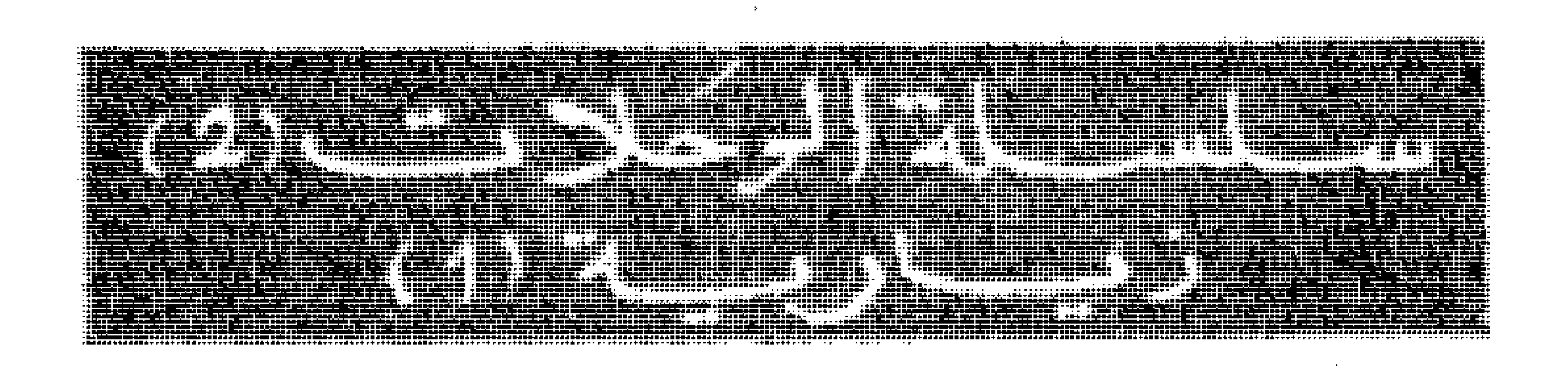
منشورات :

المركز الجامعي للبحث العلمي

40

رقم الايداع القانوني 65/148 – مطبعة اكدال، الرباط

جامعة محمد الخامس
كلية الآداب



أنس الفقير وعز الحقير

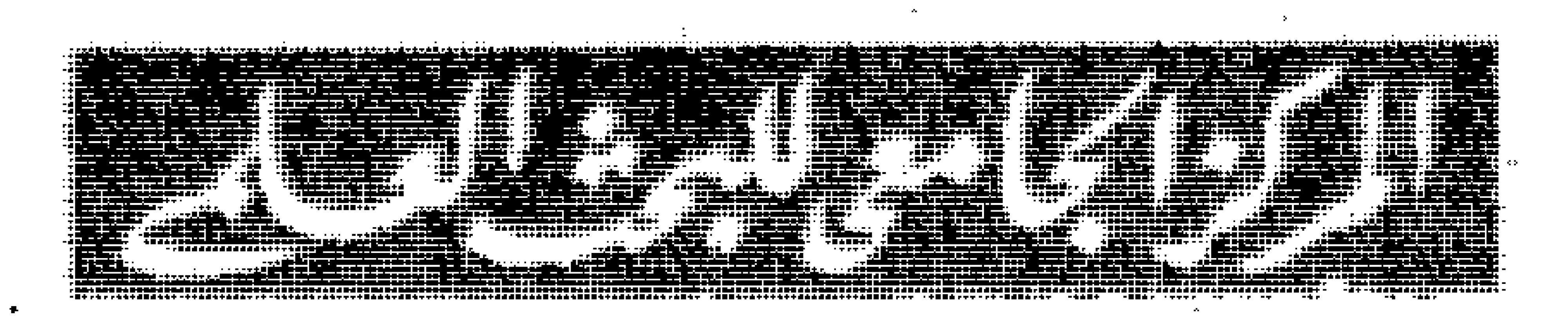
لأبي العباس احمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني
المتوفى سنة 810 هـ . 1407 - 1408م

اعتنى بنشره وتصحيحه :

محمد الفاسي
رئيس الجامعة

أدولف فور
أستاذ بكلية الآداب سابقا

منشورات :



تقديم

ذكرنا في تقديمنا لرحلة ابن عثمان الاكسير في فكاك الاسير التي صدرت منذ أمد قريب أن هذه المجموعة الجديدة ستضم ما أنتجه العرب وخصوصا المغاربة في فن الرحلة وقد برزوا فيه وتركوا لنا آثارا تزدهي بها الخزانة العربية . وقلنا اننا لا نلتزم ترتيبا لا في الزمن ولا في نوع الرحلة، فالاكسير من نوع الرحلة السفارية، وهذه الرحلة التي نصدرها الآن من نوع الرحلات الزيارية وهي التي يقصد صاحبها من سفره زيارة أضرحة الانبياء والاولياء أو ملاقاة الاحياء من الصالحين والمتعبدين .

وأنس الفقير هذا من المؤلفات التي نالت شهرة وانتشارا وهو وان كان ليس على نمط الرحلات من الانواع الاخرى التي يذكر فيها مؤلفها ابتداء رحلته مع التنصيص على ذكر المراحل وتواريخ الدخول والخروج من المدن والقرى التي يمر بها فان القصد من السياحة التي قام بها ابن قنفذ كان هو زيارة أولياء وقته والوقوف على أضرحة الصالحين السابقين لزمانه وانما جعل اطار عمله الكلام على أشهر أولياء المغرب سيدي أبي مدين الغوث وأصحابه وتلامذته . فمن هذه الناحية عددناه من نوع الرحلات وهو مع ذلك كثير ما يذكر تاريخ زيارته لاكثر المزارات التي شاهدها واذا تكررت هذه الزيارة ذكر في الغالب تواريخ ذاك بما ساعد على معرفة بعض ما يتعلق بحياته كما ستراه في المقدمة التي تلى هذا التقديم .

وعسى ان نسير بهذه المجموعة سيرا موفقا احياء لتراثنا الادبي في فن الرحلة الذي برز فيه المغاربة وانتجوا مؤلفات جليلة لا يزال أكثرها مخطوطا .

محمد الفاسي

رئيس جامعة محمد الخامس

مـقـدمـة

تـرجمـة ابـن قنفـذ

ان القرن الثامن الهجري من العصـور التي ازدهـرت فيهـا العلـوم والآداب في المغـرب العربي ونبـغ فيه رجـال استفادوا من التراث الثقافي الـذي خلفتـه الدولتـان العظيمتان المـرابطيـة والموحديـة . وان كـانت الانتاجات التي ظهرت في أواخـر هذا القـرن الى السنين الاولى من القرن التاسع لا تضاهي انتاجات الحقبة الاولى منه .

ثـم ان هذا العصر يمتاز بانتشار الافكار الصوفية واستيلائهـا على عقول المثقفين نتيجـة للحركـة التي بدأت أيـام الموحدين وقـد قوى هـذا الاتجـاه ضعف المسلمين بالاندلس وتغلب النصارى عليهم مما جعل العلمـاء يحاولـون بث الروح الدينية في نفوس المسلمين وايقاد شعلتها من جـديـد ليتشبثوا بعقائدهم ويتحمسوا لها دفـاعـا عن بيضة الاسلام وردا للهجمات الاستعماريـة الصليبية التي بدأت تعمل للاستيلاء على بلاد المغرب العربي .

كما يمتاز بتبادل ثقافي واسع النطاق بين مختلف نـواحـي المغـرب العربي مما جعل علماء هـذا العصر وأدبـاءه وكتابه يجوبـون هذه الاقطار آخذين بعضهم عن بعض ومشتغلين في الوظائف العلمية والقضائية والحكومية رغـم تشتت الوحـدة السياسية التي كان عمل لها الموحـدون بل بسبب هـذه الوحدة التي وان انفصمت سياسيا فقد بقيت متمكنة من نفوس المفكرين وساعـد عليهـا الاسلام الذي لا يفـرق بين أبنائـه لا بجنس ولا بوطن .

وان من الشخصيات التي تمثل هذا العصر خير تمثيل وأعني بـه أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ابن قنفـذ القسنطيني مؤلف هذا الكتاب

الـذي ننشره اليوم في مجموعة الرحلات، فانــه من حيث تقلبــه في مختلف عواصم العلــم المغربيـــة ومن حيث سعة اطلاعه واتساع معارفــه ومن حيث اهتمامــه بالناحية الصوفية التي قدمنــا أنها من أظهــر مميزات هذا العصر يعطينا صورة كاملــة عن رجل الفكر في المغـرب العربي أيـام المـرينيـين والحفصيـين وبني زيـان .

وهو أبـو العباس أحمد بن حسن بن علي ابــن الخطيب القسنطيني المشهور بابن قنفذ . ولــد في عائلــة علم وصلاح غالبـا بمدينــة قسنطينة حوالي سنة ٧٤٠ هـ (٢٣٣٩ ـ ١٣٤٠) . وكان والـده وجده من خطبائها كما أن جـده لأمــه يـوسف المـلاري المتوفي سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ ـ ١٣٦٣ م) كان من مشاهـير الصوفية والمربين الروحيين وقــد كان له أثـر عميق على حفيده أبي العباس كما يظهر ذلك في أنس الفقير . وكان أبـوه اديبـا مرموقا مـع اتجـاه صوفي كذلك مما جعل ابن قنفذ ينشأ في وسط يسوده الاهتمام بالعلـم والادب والتصوف .

وقــد بدأ دراسته على والده وعلى جـده لأمــه . ولمـا أنهى المرحلتين الاوليين من تعلمه توجـه الى فاس للاخــذ عن علمـاء جامعتها الشهـيرة وكان سنــه اذاك حوالي التاسعة عشرة وقد ظهرت نجابته فى كل العلـوم التي درسها قبل سفـره والتي أهلته للاستفادة من الاساتذة الكبار الذين تتلمذ لهم بفاس . وقد تـرك لنا مترجموه قائمــة بهؤلاء الاساتــذة كما ذكــر هو نفسه الكثـيرين منهم في مؤلفاتــه خصوصا في أنس الفقير .

وأشهر هؤلاء الاساتذة الذين أخذ عنهم بفــاس وبغيرها مــن مــدن المغــرب العربي هــم :

١ – الامــام أبو العباس أحمد بن قاسم القباب الفاسي (١) المتوفي سنــة ٧٧٨ هـ . وقد ذكـره في الانس وقــال حضرت مجلســه في الحــديث والفقه وأصول الدين . وذكر أن وفــاته عــام ٧٧٩ خـلافا لمـا عند غـيره ،

---

١ – نيل الابتهاج ص. ٧٢ ـ ٧٣

٢ — أبو عمران موسى العبدوسي الفاسي (١) المتوفي سنة ٧٧٦ وقد ذكره كذلك ابن قنفذ في أنس الفقير وقال : لازمته في المدونة والرسالة بفاس ثمان سنين .

٣ — أبو محمد عبد الله الوانغيلي الفاسي (٢) المتوفي سنة ٧٧٩ وقد ذكره في الانس وقال : وعليه ختمت الاصلين بفاس بمدرسة الوادي .

٤ — أبو زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائي الفاسي (٣) المتوفي سنة ٧٧٣ .

٥ — أبو القاسم محمد بن أحمد الحسيني السبتي (٤) المعروف بالشريف الغرناطي لأنه ولي قضاء غرناطة وتوفي بها سنة ٧٦٠ . ويظهر أن أخذ ابن قنفذ عنه كان بفاس في زيارة أخيرة لأبي القاسم لها قبل وفاته لأن ابن قنفذ لم يدخل المغرب الا في سنة ٧٥٩ .

٦ — محمد بن احمد ابن مرزوق التلمساني (٥) المعروف بابن مرزوق الجد وبالخطيب المتوفي بالقاهرة سنة ٧٨١ . وهو أحد رجالات هذا العصر علما وأدبا وجاها تولى عدة مناصب كالخطبة والقضاء والسفارة للمرينيين الى ملوك قشتالة بالاندلس، أخذ عنه ابن قنفذ الحديث وغيره .

٧ — أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني (٦) المتوفي سنة ٧٧١ .

٨ — الامام أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عرفة التونسي (٧) المتوفي سنة ٨٠٣ عن سن عالية .

---

١ — نيل الابتهاج ص. ٣٤٢ .
٢ — نيل الابتهاج ص. ١٤٨ .
٣ — جذوة الاقتباس ص. ٢٥٨ حيث جعل وفاته سنة ٧١ او ٧٢ .
٤ — الديباج لابن فرحون ص. ٢٩٠ .
٥ — نيل الابتهاج ص. ٢٦٧ .
٦ — نيل الابتهاج ص. ٥٥ ـ ٢٦٤ .
٧ — الديباج لابن فرحون ص. ٣٣٧ ـ ٣٤٠ وقد ترجم له وهو لا يزال حيا .

٩ — أبو علي حسن بن أبي القاسم ابن باديس القسنطيني (٩) المتوفي سنة ٧٨٧ ذكره ابن قنفذ في الانس .

١٠ — الصوفي الكبير محمد فتحا بن ابراهيم النفزي الفاسي (١٠) المعروف بابن عباد المتوفي سنة ٧٩٢ وهو شارح الحكم العطائية وقد أورد عنه ابن قنفذ في الانس معلومات قيمة .

وناهيك بهؤلاء الاعلام الذين زخرت بعلومهم وآدابهم المدن المغربية في هذا العصر المريني الثاني وقد بلغت فيه العلوم والاداب والفنون أوجها ببلاد المغرب .

ولم يكن الشاب ابن قنفذ عند مغادرته بلده يظن أنه سيقيم بالمغرب أكثر من السنين الضرورية للتحصيل وقد كانت تتراوح للنجباء من الطلاب ما بين أربع وست سنوات في الغالب ولكنه أعجب بالوسط العلمي الذي وجده بالمغرب ولم يكتف بالتبحر في العلوم العقلية والنقلية من فقه وحديث ونحو وتاريخ ومنطق ورياضيات وفلك وطب وغير ذلك من معلومات ذلك العصر بل انكب على التعمق في أسرار التصوف والبحث عن رجاله وملاقاتهم . فمن ثم تولدت في ذهنه فكرة السياحة في ربوع المغرب ساعيا وراء الاتصال بالاولياء والصالحين الاحياء وزيارة أضرحة المشاهير منهم الذين طبعوا الفكر الديني المغربي بطابعهم الذي تحول بعد ذلك في انحراف ضار الى الطرقية التي استولت أيام الانحطاط الفكري على عقول المغاربة الى أن قضت عليها الحركة السلفية المباركة التي أعادت للروح الدينية الاسلامية صفاءها وبساطتها وسمو مبادئها .

وهكذا قضى ابن قنفذ بالمغرب قريبا من عشرين سنة انقطع في اولها الى أخذ العلم من ينابيعه الى أن صار من العلماء المبرزين واسندت اليه

---

١ — نيل الابتهاج ص. ١٠٨ .
٢ — نيل الابتهاج ص. ٢٧٩ .

وظيفة القضاء كما يخبرنا عن نفسه (١) ونستفيد من هذا النص انه في سنة ٧٦٩ كان قاضيا بدكالة . فيكون عمره اذاك تسعا وعشرين سنة أي عشر سنوات بعد وصوله للمغرب .

ونراه يذكر دخوله لبعض نواحي المغرب في السنين الاولى من مقامه بفاس اخذا للعلم . فقد ذكر أنه التقى بشيخ من أحفاد أبي يعزي سنة ٧٦١ ولم يصل الى تاغية حيث ضريح مولاي أبي يعزى وبقي بينه وبينها نصف يوم . ويستفاد من هذا أنه كان يخرج من فاس أيام العطل للغاية التي كان يقصدها من ملاقاة رجال التصوف وزيارة أضرحة الصالحين والبحث عن أخبارهم وخصوصا اتصالاتهم بأبي مدين الغوث دفين العباد الذي جعل من ترجمته اطارا لكتابه هذا والذي كانت مدرسته الصوفية مستحوذة على رجال هذا العصر بكل أقطار المغرب العربي ، وكانت اسرة ابن قنفذ سواء من جهة والده أو من جهة أمه من أنصار هذه المدرسة.

وفي سنة ٧٦٣ نجده بمدينة اسفي حيث وقف على قبر أبي محمد صالح الصوفي الشهير أحد الاقطاب الروحيين الذين طبعوا الحياة الدينية المغربية بما كان له من التلاميذ والاتباع .

أما مدينة سلا فقد دخلها مرارا وكان في كل مرة يقصد وليها الشهير أبا العباس احمد بن عاشر، وقد اخذ عنه وتتلمذ له وكانت طريقته اتخاذ احياء علوم الدين للغزالي اماما «جعله بين عينيه واتبع ما فيه» على حد تعبير ابن قنفذ . وقد واظب على ملاقاته الى أن توفي سنة ٧٦٥ فكان بعد ذلك يتردد على سلا لزيارة قبره .

ونراه سنة ٧٦٩ بناحية دكالة حيث كان يعقد كل سنة شبهمؤتمر صوفي يقصده كل المنتمين لهذه الحركة . قال ابن قنفذ بهذه المناسبة «وكان الاجتماع في شهر ربيع الاول المبارك الاسعد سنة تسع وستين وسبعمائة

---

١ – ص. ٧١ من كتاب أنس الفقير هذا .

وحضره من لا يحصى عــدده مــن الفضلا ولقيت هنالك من اخيارهم وعلمائهم وصلحائهم ما شردت بــه عيني بسبب كثرتهم» (١) .

وفي سنة ٧٧٠ نراه بفاس يحضر دروس أبي محمد الهسكوري بمسجد البليدة من مدينة فاس كما ذكر ذلك عن نفسه في آخــر كتابه شرف الطالب .

ويذكر انه زار نواحي أخرى بدون تحديد تاريخ وذاك مثل سكســاوة ومدينتهــا المسماة القاهــرة وأزمور وصفروا .

وفي سنة ٧٧٦ قــرر الرجوع الى بلده . ووقف طبعــا بالعبــاد فــي تلمسان لزيارة ضريح أبي مدين الغوث . وبعد رجوعه الى قسنطينة تولى عــدة خطط كالخطبة والافتاء والقضاء . وعكف على نشر العلــم بالتــدريس والتأليف ولا شك أنــه كان وضع بعض تآليفه بالمغرب أو بدأ بعضها وأتمها ببلده واستمر على حالته المرضية هذه الى ان وافاه الأجل سنة ٨٠٩ او ٨١٠ على احــد القولين في وفاته رحمه الله .

وقد كان كما قدمنا مشاركا في علوم كثيرة عقلية ونقلية ويظهر أثــر هــذه المشاركة في المؤلفات التي وضعها وقد أورد لنا في آخــر كتابــه شرف الطالب في اسنى المطالب قائمة بها نذكرها مرتبين لها ترتيبا جديدا اذ نذكر أولا التآليف التي وصلتنا ثــم نردفهــا بأسماء الكتب الاخرى التي لم ترد في فهارس خزانات المخطوطــات العالميــة .

أولا ــ تــآليف ابــن قنفــذ المــوجــودة :

١ – شرف الطالب في اسنى المطالب . وهو شرح للمنظــومة المسماة «القصيدة الغزلية في القاب الحديث» لابي العباس أحمد بن فرج الاشبيلــي وهــي في مصطلح الحديث وقد نشرها بليدن (هــولنــدة) المستشرق ريش (Risch) مــع شرحها لعز الدين ابن جماعة، ومع تــرجمــة وتعاليق بالالمانية سنة ١٨٨٥ . أمــا شرف الطالب فتوجد منه عــدة مخطوطــات بالخزانــة العامــة بالرباط وبالخزانة الوطنية بباريس .

---

١ – ص. ٧١ من كتاب أنس الفقير هــذا .

٢ – الوفيات وهو ذيل جعله لكتابه السابق ويحتوي على تراجم قصيرة جدا للعلماء وخصوصا المحدثين منهم مرتبة على القرون وعلى تواريخ وفياتهم ورغم صغر حجم هذا التويلف فقد نال انتشارا كبيرا لانه مرجع سهل لمعرفة تاريخ وفيات الاعلام من رجال العلم المسلمين لذلك أفرد على حدة، وتوجد منه نسخ مخطوطة كثيرة . وقد نشره مولوي محمد هدايت حسين بالهند سنة ١٩١١ .

٣ – تحفة الوارد في اختصاص الشرف من قبل الوالد . قال عنه ابن قنفذ في آخر كتاب شرف الطالب : «وهو غريب» منه مخطوط بالقاهرة.

٤ – الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية ـ وقد سمى ابن قنفذ هذا التاريخ بالفارسية نسبة للامير الحفصي الذي ألفه باسمه واهداه له وهو أبو فارس عبد العزيز وقد نشر على الحجر بباريس سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧ م) كما أن المستشرق الفرنسي شربونو Cherbonneau كان نشر بعض النبذ من هذا التاريخ مع ترجمتها الى الفرنسية في الجريدة الاسيوية ما بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٢ . وتوجد نسخ مخطوطة منه في عدة خزانات منها الاسكوريال والخزانة الوطنية بباريس .

٥ – تسهيل المطالب في تعديل الكواكب . ويسمى أحيانا تيسير المطالب . منه مخطوط في الخزانة العامة بالرباط في مجموع مسجل تحت عدد ٥١٢ مكررة وهو الثاني منه . وقد ذكر عنه ابن قنفذ في قائمته الواردة في آخر شرف الطالب أنه «لم يهتد أحد الى مثله من المتقدمين» . كما توجد منه نسخة بالخزانة الملكية بالرباط تحت عدد ٥٢٦٢ .

٦ – تحصيل المناقب وتكميل المآرب . وهو شرح لكتابه السابق الذكر وتوجه منه كذلك نسخة مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط في نفس المجموع بعد تسهيل المطالب . وكلاهما في علم الفلك .

٧ – شرح منظومة ابن أبي الرجال المسماة «المنظومة الحسابية في القضايا النجومية» يوجد من هذا الشرح مخطوطان بالخزانة العامة بالرباط أحدهما مسجل تحت عدد ٤٦٦ والآخر تحت عدد ٥١٢ مكررة .

٨ – شرح الارجوزة التلمسانية في الفرائض . ذكر ابن أبي شنب في مقاله بمجلة هيسبريس حول الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية أن هذا الشرح يوجد باحدى الخزانات الخاصة بالجزائر .

٩ – طبقات علماء قسنطينة ـ ذكر ابن أبي شنب في نفس المقال حول الفارسية أن هذه الطبقات يظن وجودها باحدى خزانات قسنطينة الخاصة .

ويلاحظ أنالكتب الثلاثة الاخيرة (٧ ـ ٨ ـ ٩) لم يرد ذكرها في القائمة التي أثبتها ابن قنفذ في أخر كتابه شرف الطالب . فلعله الفها بعد وضعه لكتاب شرف الطالب .

١٠ – أنس الفقير هذا ـ ولنا اليه رجعة

ثانيا – تآليفه التي تعتبر الان ضائعة :

١ – تقريب الدلالة في شرح الرسالة «في أربعة أسفار» .

٢ – اللباب في اختصار الجلاب

٣ – معاونة الرائض في مبادىء الفرائض .

٤ – المعاني في بيان المباني . «وهو شرح لرجز في المنطق نظمه صاحبنا الفقيه الاستاذ الحافظ أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه أبي زيد عبد الرحمن المراكشي الضرير من أهل بلدنا» .

٥ – تلخيص العمل في شرح الجمل «في المنطق» .

٦ – أنوار السعادة في أصول العبادة .

٧ – شرح لقوله عليه السلام بني الاسلام على خمس «الحديث وفي كل قاعدة من الخمس أربعون حديثا وأربعون مسألة» .

٨ – هدايـة السالك في بيان الفية ابن مالك .

٩ – المسافـة السنيـة في الـرحلـة العبدريـة . وهـو اختصـار لـرحلـة العبـدري .

١٠ – شرح الثقات في علم الاوقـات .

١١ – تسهيل العبارة في تعديل السيارة «واشتمـل على أربعـين بـابـا وستين فصلا» .

١٢ – أنس الحبيب عن عجز الطبيب .

١٣ – وقـايـة المـوقت ونكـايـة المنكت .

١٤ – بسط الرموز في شرح الخزرجي

١٥ – القنفذية في ابطال الدلالة الفلكية .

١٦ – حط النقاب عن وجوه أعمـال الحساب . «وهو شرح تلخيص ابن البناء وقد سبقت اليه ابن زكرياء الاندلسي وكـان أخـذ مـن كتـابي نسخة عند جوازه الى مدينة فاس بعد سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة» .

١٧ – التمحيص في شرح التلخيص .

١٨ – الابراهمية في مبادىء علم العـربيـة .

١٩ – تفهيم الطالب لمسائل أصول ابـن الحاجب . «قيدتـه زمان قراءتنا على شيخنا ابي محمد عبد الحق الهسكوري بمسجد البليدة من مدينة فـاس وكـان الابتـداء أول سنة سبعـين وسبعمائـة» .

٢٠ – عـلامـة النجاح في مبادىء الاصلاح .

٢١ – بقية (لعلها بغية) الفارض من الحساب والفرائض .

٢٢ – وسيلة الاسلام بالنبي عليه السلام «وهو من أجـل الموضوعات في السيرة لاختصاره» .

٢٣ – تقييدات في مسائل مختصرة مختلفـة .

ويظهر من عناوين هـذه الكتب كما قدمنا ما كان لـه من المشـاركـة في فنون متنوعـة من التوحيد والفقيه الى الفلك والطب . وقد كان له ولوع

بفــن الرحلــة وذلك ما دفعه لاختصار الرحلة المغربية للعبدري . وهــذا يدل على انتشار هــذه الرحلة واقبال العلمــاء والمثقفين عليهــا حتى عاملــوهــا معاملــة الكتب الاساسية التي يعني بها بالشرح والتلخيص .

كتــاب أنس الفقيــر

يعرف هــذا الكتاب بأنس الفقير وعز الحقير الا أن ابن قنفذ في القائمة السالفة الذكر يزيــد بعد ذكــره هــذا العنوان قوله : «في رجال من أهــل التصوف أبي مدين وأصحابــه» ولا شك أن هــذه العبارة قصــد بهــا شرح موضوع الكتاب وليست من صميم الاسم والحقيقة كما قدمنا أن الكــلام على أبي مدين الغوث اتخذه فقط كاطــار لذكــر سياحته بــالمغــرب وملاقــاتــه لرجــال التصوف والدليل على ذلك أنه رغــم اعتماده في ترجمته وترجمــة اصحابــه على كتاب التشوف للتادلي حتى أننــا في تعاليقنا نبهنــا نحــو ستين مــرة على نقلــه عنه فان المعلومــات التي أثبتها عن دفين العباد أقــل ممــا يوجــد في التشوف . لذلك يبقى أن المهــم في هــذا الكتاب هو ما شاهده بنفســه ! هــو اتصالاتــه الشخصية برجــال التصوف وذكــر أخبارهــم ومجاهداتهــم والاشارة الى ما تمتاز بــه سيرة كل واحــد منهــم .

ويتجلى من هذا البحث الذي قام بــه ابن قنفذ عن الحياة الصوفية في المغــرب في القــرن الثامن الهجري أن الحركــة التي بدأتأيام الموحدين والتي سجلهــا التادلي في كتابه التشوف (١) قد انتشرت أيام المرينيين وتمكنت وهــذه الحــركة هي التــي انقلبت أيام السعديــين وبعدهــم الى حــركــة طرقية محــرفــة تعتمــد على الكرامــات والخوارق والخــرافــات وترتكز

١ — هذا الكتاب الاساسي لتاريخ الفكرة الصوفية في المغرب قد نشره الاستاذ فور في مجموعة معهد الابحاث العليا المغربية بالرباط سنة ١٩٥٨ .

على ما ينسبونـــه مـــن ذلك لمـــولاي عبد السلام بن مشيش جاعلـــين منـــه أحد تلامذة أبي مدين الغوث مـــع ان ابن قنفذ لم يذكره مطلقا في كتابـــه وقد استقصى فيـــه أشيـــاخ أبـــي مديـــن واخوانـــه وأصحابـــه على حـــد تعبيره.

مخطـــوطـــات أنس الفقيـــر

قـــد اعتمدنا في نشرنا لـــلانس على خمس نسخ نصفها فيما يلي :

النسخـــة الاولى : مخطـــوط الخزانة العـــامـــة بالـــربـــاط المسجـــل تحت رقـــم ٥٢٤ . وهو أقـــدم هذه المخطوطـــات وان كان لـــم يذكر فيها أي تاريـــخ الا أن ليفي بروفنصال في فهرسه لمخطوطـــات الخزانـــة العامـــة اكـــد أن تاريخها يـــرجـــع للقرن الثاني عشر الهجـــري (الثامـــن عشر الميـــلادي) وتحتوي على ٢١ ورقـــة مسطرتها ٢٩ سطرا وتـــارة ٣١ سطرا وأحيانا ٣٣ سطرا ومقياسها ٢٦ × ٢٠ وخطها دقيق واضح . ونشير اليهـــا بحرفي را .

النسخة الثانية : مخطوط تفضل الاستاذ كولان وجعله تحت تصرفنا وهو يحتوي على ٥٨ ورقة مسطرتـــه ٢٠ سطرا ومقياســـه ٢٣ × ١٨ خط مغربي عادي . وهو غير مؤرخ . ورغم تشابهه بالمخطوط الاول فقد أفـــادنـــا في تحقيق بعض المبهمات . ونشير اليه بحـــرف كـــ .

النسخة الثالثة : مخطوط الخزانـــة العامة المسجل تحت عـــدد ١٤٩٨ (ورقمه في فهرس الاستاذين الركراكي وعلوش ج ٢ هو ٢٢٣٢) ويـــوجـــد في مجموع من الـــورقـــة ١٢ ثانية الى ورقة ٤٩ ثانيـــة مسطرتـــه ٢٥ سطرا ومقياسه ٢٣ × ١٨ بخط دقيق عادي مائل الى اليمين وهـــو مـــؤرخ بالثالث عشر مـــن صفر سنة ١٢٢٧ هـ (١٨٦٠ ـــ ١٨٦١ م) نشير اليه بحرفي : رب . ويظهـــر أنـــه مـــن طـــائفة غـــير طـــائفة المخطوطين الاولـــين .

النسخة الرابعة : مخطوط خزانة القرويين وقد اعتمدنا على صورة فوتوغرافية منه . وهو غير مؤرخ ويحتوي على ٢٤ ورقة مقياسه ٢٦ × ٢٠ ونشير اليه بحرف ق .

النسخة الخامسة : مخطوط من خزانة كاتبه الخاصة وهو يحتوي على ٥٦ ورقة مسطرته ٢٣ سطرا وفي الورقات الاخيرة صارت تزيد الى أن بلغت ٢٨ سطرا . مقياسه ٢٤ × ١٨ خط مغربي عادي وهو من طائفة مخطوط القرويين . وهو غير مؤرخ كذلك ونشير اليه بحرف ف .

وبعد انتهائنا من تحقيق هذا الكتاب وقفنا في الخزانة العامة على أربع نسخ أخرى من جملة كتب المتعاونين التي دخلت الخزانة بعد الاستقلال اثنتان من هذه النسخ من طائفة رب ! ف ! ق . واثنتان من طائفة را ! ك ـ وليس بين كل هذه النسخ التسع فوارق كبيرة .

وينبغي قبل الختام أن نشير الى اسلوب ابن قنفذ في هذا الكتاب فاذا كان في الخطبة يستعمل السجع ويتأنق في كتابته فانه عند كلامه على مشاهداته وزياراته لمختلف النواحي التي تكلم عنها فانه يعمد الى أسلوب حي بسيط والى لغة لا تخلو أحيانا من بعض الالفاظ العامية كالمخايد للوسادات والصابة للمحصول الزراعي ونحوهما بل عندما يحكي كلام بعض الصوفية ممن التقى بهم ياتي بعبارات تكاد تكون عامية كقوله مثلا : أعطني سرجك نركب بها (١) . وقد ذكر ابن أبي شنب في كلامه على كتاب الفارسية أنه يستعمل بعض العبارات عليها مسحة من لغة أهل قسنطينة والملاحظ في أنس الفقير ان العبارات القليلة التي تنتمي الى اللهجة العامية كتذكير بئر وتأنيث كساء وغير ذلك فانها من قبيل اللهجة المغربية كذلك الاماكان من قوله ص. ٩٨ الكاملة فانها لفظة عامية لا تعرف بالمغرب الاقصى وقد ارتأيت في تعليق على هذه اللفظة

١ – أنظر ص. ٥١ من هذه الطبعة .

أن معناهـا اما نوع مـن الطعام او انـاء وقـد وقفت بعـد هـذا في رحلـة التجاني على ما يلي : وأنشدني الحنفي لنفسه يذم بلده (يعني مهدية تونس) ويصف أهلها بالبخل الابيات المشهورة : (طـويل)

اذا حـل بالمهـديـة الضيف نـازلا يـروم القـرى زفت اليه الكـوامـل
اذا حسـروا عنها المنـاديل أنشدت وما السيف الاغمـده والحمائـل (١)

وعلى هذا فان الكوامل وهي جمع كاملة تدل على نوع المـائدة المسماة ميـدة بفـاس، وهي مقعرة مستديرة تجعل بداخلها الصحون وتغطى بمـا يسمى المكب أو بمنديل كما في البيت الثاني ولاشك أن اشتقـاقهـا مـن الكمـال وهـذا بعيـد جدا عما ذهب اليه زميلي الاستاذ فـور من أخذها من Gamella التـي هـي انـاء حقـير مـن قصـديـر او نحـوه يجعـل فيـه طعـام العسـاكـر .

* * *

ورجاؤنا في الختام أن يفيد نشر هـذا الكتاب الباحثـين عـن تاريـخ الحركة الصوفية لأنـه من أقـدم ما وصلنا من الكتب المـؤلفـة بالمغـرب في هـذا الموضوع ويعتبر مـع التشوف لابن الزيـات التادلي وقـد نشر كمـا تقدمت الاشارة اليه وكتاب المقصد للبادسي وقـد نشرت ترجمته الفرنسيـة ولـم يطبع النص العربي الى الآن من المصادر الاساسية عن تاريخ التصوف بالمغـرب ايـام المـوحـدين والمـرينيـين (٢) .

---

١ – رحلة التجاني ص. ٣٧٠ مـن طبعة تونس سنة ١٣٧٨/١٩٥٨ .

٢ – يتعين التنبيه الى ان احد مواطني ابن قنفذ من اهل قسنطينة من رجال القرن الحادي عشر يعرف كذلك بابن قنفذ وله رحلة تسمى بادريسية الامصار والقرى وبلاد العرب الفها كذلك عن سياحته بالمغـرب لزيـارة الاولياء والصالحـين توجد منها مخطـوطـة بالـربـاط ٩/١١٩٢ واخـرى بالقـاهـرة ولعلـه أحد حفـدة صاحب أنس الفقـير .

مــراجع تــرجمــة ابــن قنفــذ

ابــن القــاضي : الجــذوة ٧٩

درة الحجــال ج آ ص. ١. ٦٠

احمــد بابــا : نيل الابتهاج ٥٧

القــادري : نشر المثاني ج ١ ص. ٤

ابــن مريــم : البستان : ٣٠٨ ــ ٣٠٩

الحفناوى : تعــريف الخلف : ٢٧ ــ ٣٢

الكتــانــي : فهــرس الفهــارس ج ٢ ص. ٢٤٣

BEN CHENEB. — *La Fârisiya ou les débuts de la dynastie ḥafṣide par Ibn Qonfoḏ de Constantine,* « Hespéris », T. VIII, 1928, 1er trimestre, pp. 37-39.

LÉVI-PROVENÇAL (E.). — *Les manuscrits arabes de Rabat*, Paris, 1921, pp. 132-134. — *Les Historiens des Chorfa,* Paris, 1922, p. 98, n. 2.

BASSET (R.). — *Recherches bibliographiques sur les sources de la Salouat el-Anfâs,* in « Recueil de Mémoires et de Textes publiés en l'honneur du XIVe Congrès des Orientalistes », Alger, 1905, pp. 13-14, nos 20-21.

BROCKELMANN (F.). — *Supplément...,* II, p. 241.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

قال الشيخ الفقيه المدرس المفتي الخطيب القاضي الأعدل أبو العباس أحمد بن الخطيب، رحمه الله تعالى :

الحمد لله الذي جعلنا من أمة محمد خاتم أنبيائه ؛ وصرف قلوبنا الى محبة أهل طاعته وأوليائه ؛ وحفظ وجودنا بوجودهم في أرضه وسمائه ؛ وجعلهم مراتب بحسب تفاوتهم في منازل أصفيائه ؛ ووعدهم بالمزيد من فضله واحسانه ونعمائه ؛ و أمنهم بقوله تعالى « أَلَاَ إِنَّ أَوْلِيَـاءَ ٱللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » (١) وصلاته التامة على سيدنا و مولانا محمد الهادي الى الايمان، المخصوص بالصدق والحلم والاحسان ؛ المعروف بالعز المؤيد والاخلاق الحسان، الذي ظهرت بركاته وأنواره في عالم الانسان، وصحت كرامة من اتبعه صادقا بالفعل واللسان. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة الى يوم يُبْعَثُون.

وبعد فان الفقير الى عفو ربه أحمد بن الخطيب، وفقه الله، ولطف به قال : رغب الي من يكرم علي من بعض اخواني في الدين في تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين، نفع الله به وبأمثاله المسلمين ؛

---

١ — سورة يونس : ٦٢ .

و ذلك في شهر رمضان المعظم من عام سبعة وثمانين وسبعمائة بقسنطينة المحروسة . فحركني ذلك الى ذكر هذا الشيخ والتعريف به ، وما وصل الي من خبره ونسبه ، مع مناسبة جلبتها هنا بسببه ؛ قاصدا في ذلك سبيل الاختصار ، على العادة في ذكر الأمثال والأخبار . وسميت هذا التقييد : **أنس الفقير وعز الحقير** . وقبل الخوض في ذلك أقدم هنا مقدمة قريبة تفيد الناظر صفة الولي وتحقيق أمره ، وان تباين سره وجهره ؛ مع لواحق ألحقتها ، وشواهد أثبتها .

فأما صفة الولي فقد دل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على صفة الأولياء فقال : « الذين اذا رؤوا ذكر الله . » (١) وفي هذا الحديث الشريف من الدلالة عليهم كفاية تامة . فأولياء الله تعالى الذين اذا رآهم المؤمن عظم ربه وذكر ذنبه . و يجب أن تلتمس بركاتهم ، وتغتنم دعواتهم . والأصل في ذلك الاقتداء بقول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، حين ذكر له أويس القرني : « ان استطعت ان يُغفَرَ لك فافعل » ومعناه الحض على لقائهم وطلب دعائهم ، لأنه لايعادل أحد صاحبا من أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . فان النظرة الواحدة من المؤمن في وجه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأولياء الله تعالى حسنة من حسناتهم لتبليغهم عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ما تصح به الافادة . والكل في ميزان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لأنه الهادي والمبلغ عن الله . وشأن الاولياء أن يمنحهم الله تعالى علوما الهامية ، يكشف بها عما في القلوب حتى تكون حواسهم من سمع وبصر وشم مخالفة لحواس غيرهم . ولذلك منهم من يرى الملائكة ، ومنهم من يرى الجن ، ومنهم من يرى البلاد النائية ، ومنهم من يرى ما في السماوات ، ومنهم من يرى اللوح المحفوظ ، ومنهم ما يقرأ ما فيه . قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في

---

١ – راجع سنن ابن ماجة ، كتاب الزهد ، باب ٤ .

القواعد حين ذكر هذا : « فسبحان من أعزهم وأدناهم ، وأذل آخرين وأقصاهم » .

واعلم أن من امتثل أوامر الله تعالى واجتنب نواهيه و رُزِقَ الخوف من الله تعالى ، لا من خلقه ، واجتهد في طاعته ، جل وعلا ، وبحث عن أمر كسبه ووقف عند ما حد له و رجع عن كل ما لا يعلم حكمه ، فهو الصالح . و أعلى درجة من هذا حصول الورع التام ، وترك الطمع وبغض الدنيا ومن تمسك بها ، و الفرار من دواعيها ومن أهلها ، و القناعة باليسير منها . ودرجات الصالحين تختلف بالترقي في ذلك على حسب العناية من الله تعالى في المماليك .

واعلم أن الكرامة ليست من شرط حصول الولاية . فقد تحصل الكرامة . لكن ان وقعت لولي (١) فهي دالة على صدق عبادته وعلو مكانته بشرط اتباعه لحقيقة ما أمر به النبي عليه السلام . والا فهي خذلان من الشيطان . و من الصالحين من يعلم بولايته ويعلم غيره بها . و منهم من لايعلم بنفسه ولا يعلم به . ومنهم من يعلم به ولا يعلم هو بنفسه . وكذلك أصحاب الكرامة ، منهم من يعلم بكرامته ومنهم من لا يعلم بها . والعالمون بها : منهم من يكتمها جهد استطاعته ، ومنهم من يظهرها ويصرح بها . كان رجل بالمغرب يظهرها ويقول : أظهروا الكرامة ليرغب في الطاعة . ولذلك منهم من يتزيا بزي المجانين ، ومنهم من يتزيا بزي الصالحين على اختلاف آرائهم ومقاصدهم . لكن الذي يتزيا بزي من يحتقر هو الذي اذا بحثت عن ظاهر أمره وجدته مشغولا بطاعة ربه ثم يدري بما يظهر له . أما اذا كانت حالته في الباطن مساوية لحالته في الظاهر أو أردأ فلا يوصف بالخير بوجه . وقد ظهر لك مما قررناه أنه لايستدل على الولاية بالكرامة لاحتمال أن تكون من الشيطان . وانما يستدل على صدق الكرامة بصحة الولاية . وقد تكون الكرامة نوعا

---

١ — ف : لكن ان وقعت من ولي ...

واحـدا في الشخص وقد تكون أنواعـا مختلفـة و ربمـا كانت مرارا . وقد شاهدت ذلك ولا يتكـر الكـرامـة الا معاند محـروم سيء الاعتقـاد كثـير الانتقـاد ولا بـد أن أشير الى ما رأيت .

قال الشيخ أبـو يعـزى رحمه الله : « مـا لهـؤلآء ينكرون الكرامـة والله لو كنت قـرب البحـر لأريتهـم المشي على المـاء ! » (١) فـلا يلتفت الى البطـال الغافـل بـوجه لأنه أمـر علمه المحققون وركـن اليه المتقون . فـان قلت : اذا كانت الكـرامة دالة على صحة العبادة فلا أصح مـن عبادة الصحابة فهـل كانت لهم أو لأحـدهم كرامة أم لا ؟ قلنـا : قـد قررنا في ما سبق أنها ليست بشرط الفضل . وأيضا فكرامتهم العلية ، شهادة الله لهم بالعـدالة ، و شهـادة النبـي ، صلى الله عليه وسلم ، لأنـه لايدركهم أحد في فضلهم . فـان قلت : هـذا صحيح ونحن نسأل عن هـذه الخـوارق وهل وقعت منهـم أم لا ؟ ولانسأل عـن استقامتهـم لحصول العلـم بها . قلنا : نعـم ففي البخـاري أن رجلين خـرجا من عند رسول الله ، صلى الله عليـه وسلـم ، في ليلـة مظلمـة فـاذا النـور بين أيديهما حتى تفـرقا فتفـرق النـور معهما . (٢) وفي البخـاري أن عمـران بـن حصـين كـانت تكلمه الملائكة . (٣) ونـادى عمر بن الخطاب : « يـا ساريـة الجبـل ! » يحضه على الرجـوع الى الجبل حـذرا من العـدو وبينهمـا مسيرة أيام . فـرآه وسمعـه ساريـة فـرجع الى الجبل وسلم من العـدو . (٤)

وأما اجـابة دعائهم ، رضي الله عنهـم ، فكثير معلوم . ولـما حضرت الوفـاة أبا بكـر الصديق ، رضي الله عنه ، وجـه الى علي بـن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وقال له : « ان انـا مت ، فاغسلـوني ، وكفنونـي وصلـوا علي ، واحملـوني الى روضة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، و استأذنوا

---

١ – راجع التشوف ، ص ١٩٦ .
٢ – راجـع التشوف ،ص ٣٥ .
٣ – التشوف ،ص ٣٧ .
٤ – التشـوف ، ص ٥٠ .

علي في الدفن بازائه ، عليه السلام . فان فتح الباب من غير فعل انسان فادفنوني هنالك والا فاحملوني الى البقيع . » ففعل ذلك علي ، رضي الله عنه . وأتى به الى باب الروضة المباركة وقال : « يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن في الدفن الى ازائك . » ففتح الباب من غير فاتح برا وكرامة لأبي بكر الصديق ، رضي الله عنه . وكان الشيطان يهرب من عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فجا بعد فج . فأوصى ان تستأذن عائشة في الدفن بازاء أبيها فأذنت . وظهر لي أن الحكمة في دفنهما بازاء النبي ، صلى الله عليه وسلم ، دون غيرهما قربهما منه يوم القيامة . فان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أول من تنشق عنه الأرض . وقد خرج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يوما من الأيام وفي يمينه أبو بكر و في شماله عمر . فقال عليه السلام : « هكذا أبعث يوم القيامة » ودخل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بعد وفاته ، على عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، وهو محصور في الدار ، من كوة في البيت ، في اليقظة فقال : « حصروك يا عثمان ! » فقال : « نعم . » قال : « أعطشوك يا عثمان ! » فقال : « نعم . » فقال : « تفطر عندنا يا عثمان . » فقال : « نعم . » فأمر عثمان غلمانه بطرح السيوف حتى قتل . ورجعت الشمس بعد مغيبها لعلي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، حتى صلى العصر في وقتها لاشتغاله بخدمة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . وبعث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أبا ذر يدعو له عليا ، رضي الله عنه . فوجد في بيته أرحاء تدور وليس معها أحد . فعجب من ذلك . فقال له النبي ، صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر أ ما علمت أن لله تعالى ملائكة سياحين في الأرض موكلين بمؤونة آل محمد » (١) صلى الله عليه وسلم . وعطش الناس فأزال علي ، رضي الله عنه ، حجرا نبع الماء من تحته . وكلمته ، رضي الله عنه ، الموتى . وقال رسول

---

١ – التشوف ،ص ٥٣ .

الله ، صلى الله عليه وسلم ، للبراء بن مالك : « لو أقسمت على ربك لأبرك ! » وكذلك فعل حين التقى المسلمون بالمشركين فقال : « أقسمت عليك يا رب الا منحتنا أكتافهم وألحقتي بالنبي ، صلى الله عليه وسلم ! » فمنحوا أكتافهم وقتل البراء (١) . ورأى خالد بن الوليد زقا فيه خمر فقال : «ما هذا ؟» فقالوا له : « خل . » فقال : «اللهم اجعله خلا !» فصار خلا (٢) . قلت وفيه كرامتان . وزار سلمان الفارسي صاحبا له في النزع فوجد عنده ملك الموت . قال سلمان : « يا ملك الموت ارفق بصاحبنا . » فقال : « اني بكل مؤمن رفيق . » (٣) وسمع الحاضرون الصوت ولم يظهر لهم الشخص . وهذا الباب واسع جدا و كرامات الصحابة و فضائلهم أكثر من أن تحصى وقد امتلأت بذلك المجلدات . واذا ظهرت الكرامة لمن هو دونهم في الفضل قطعا فأحرى لهم .

واعلم أنه جاء في الحديث : « من عادى وليا فقد بارزني بالمحاربة . » وقال ، عليه الصلاة والسلام : ان الله تعالى يقول : من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب . » (٤)

واعلم أن سوء الظن أساس الحجاب بين الناس والأولياء و حسن الظن فيه سلامة الدين وثبوت اليقين . وفي الحديث أن الله تعالى يقول : « لايزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فأكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولئن سألني لأعطينَّه ! » (٥) فان قلت : « هل تنقطع الكرامة بموت صاحبها أم

---

١ – التشوف ، ص ٣٣ ، ٣٤ .
٢ – التشوف ، ص ٥٣ .
٣ – التشوف ، ص ٥٣ .
٤ – التشوف ، ص ١٩ . في ق : من حاد لي أولياء الله فقد آذن الله بالمحاربة .
٥ – التشوف ، ص ١٩ .

لا ؟ قلنا : لا تنقطع بموته ، بل تظهر . فكثير من لا يعرف في الحياة تشتهر بركاته بعد الممات ، وتلوح عند قبره البركات . ولقد حضرت عند ولي الله تعالى على التحقيق وهو الشيخ الحاج الزاهد الورع الصالح أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلسي (١) بمدينة سلا في عام ثلاثة و ستين وسبعمائة . سأله احد الفقراء عن هذا الفضل . فأنكر عليه سؤاله وقال : « لاتنقطع الكرامة بالموت ؛ أنظر الى السبتي ! » يشير الى الشيخ الفقيه العالم المحقق أبي العباس السبتي المدفون بمراكش وما ظهرت عند قبره من البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات . سمعت بمراكش يهوديا يلهج ببركته وينادي باسمه عند أمر أصابه لا مع المسلمين . فسألته عن سبب ذلك فأخبرني أنه وجد بركته في غير ما موطن . فسألته عما رأى له في أقرب وقت . فقال لي : « وحق ما أنزل على موسى بن عمران اني ما أذكر لك الا ما اتفق لي في قريب . وهو أني سريت بالليل مع قافلة في مفازة وبين يدي دابة . فعرجت لي وما شككت في قتلي وسلب مالي . فجلست و بكيت و بيني وبين الناس بعد . فقلت : يا سيدي أبا العباس خاطرك ! قال لي : والله ما أتممت الكلام الا وأهل القافلة أصابهم سبب و وفقوا وضربت دابتي وخف عرجها وزال واتصلت بالناس . » فقلت له : « لم لم تسلم ؟ » فقال : « حتى يريد الله تعالى . » وعجبت كون ذلك من يهودي . وهذه شهادة عدو في الدين . ولقد وقفت على قبره مرات وسألت الله تعالى في أشياء يسرها لي . منها سؤالي أن أكون ممن يشتغل بالعلم ويوصف به وأن ييسر علي فهم كتب عينتها . فيسر الله علي ذلك في أقرب مدة . وكان السبتي آية في أحواله ،

١ – المتوفى سنة ٧٦٤ أو ٧٦٥ – ١٣٦٢ أو ١٣٦٣ . راجع كتاب « تحفة الزائر ببعض مناقب سيدي الحاج احمد بن عاشر » . غير مطبوع ؛ مسجل في فهرس المخطوطات العربية ، الجزء الثاني ، رقم ٢٣٠٣.

ما أدرك صحبتــه الا الخــواص من الناس . وكــان أصل مــذهبه الحض على الصدقــة . (١) وكـان أمــره عجبــا في اجــابة الدعاء بنــزول المطر واختصاصه بمكــان دون آخــر . وقــال لأصحــابه : « أنا القطب . » وكان تفقه على أبي عبد الله الفخار صاحب القــاضي عياض بسبتــة لأنها بلــد القاضي عيــاض . وأمــا قبــره فبمراكش وقفت عليه ولــه بركات وأنوار . وكان السبتي آيــة في المناظرة وأوذي باللسان كثيرا جــدا فكــان يصفــح ويتجــاوز . وسمع يــومــا منشــدا يقــول :

رَفَعُــوا الهَــوَادِجَ لِلــرَّحِيــلِ وَ سَلَّمُــوا

فقــال هــو ، رحمه الله :

رَفَعُــوا آلأَنَــامِلَ لِلصَّلَاةِ وَ كَبَّــرُوا
فَبَــدَا آلْخُشُــوعُ بِخَوْفِهِــمْ يَتَــرَنَّمُ
وَبَــدَتْ سَوَاكِبُ دَمْعِهِمْ مَسْبُولَــةً
خَــوْفاً لِمَــا قَــدْ أَخَّــرُوا أَوْ قَــدَّمُوا
هَــذِي صــلَاةُ آلْمُتَّقِيــنَ وَغَيْــرُهُمْ
نَــائِــي آلْفُــؤادِ لِسَانُــهُ يَتَكَلَّمُ (٢)

رأى عبد الرحمن بن يوسف الحسني ، من أهل البيت الكريم ، النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في النوم قال : فقلت : « يا رسول الله ! ما تقول في السبتي ؟ » وكنت سيء الاعتقــاد فيه . قــال : فقال لي بعــد أن تبســم : « هو من السباق . » قال : فقلت : « بين لي ، يا رسول الله . » قال : « هو ممن يمــر على الصراط كالبــرق . » قال : فخرجت بعــد الصبح فلقينــي أبو

---

١ – راجــع « تعطير الأنفاس في التعــريف بالشيخ أبــي العبــاسي » لمحمد بن محمد المــدعو بابن المــوقت ، طبعة حجريــة ، فــاس ١٩١٨/١٣٣٦ ؛ مجلــة هسبيريس ، الجزء ٤٣ ، سنة ١٩٥٦ ، ص ٤٤٨ .

٢ – من الكامل .

العباس فقال لي . « قـل مارأيت وما سمعت والله لا تركتك حتى تعرفني . » فعـرفته ، فصاح وقال : « كلمة الصفا من المصطفى . » وتوفي السبتي ، رحمـه الله ، بمـراكش سنة احـدى وستمائة وكـانت ولادتـه بسبتـة عـام أربعـة وعشرين وخمسمائـة . فـأعجبتنـي اشارة ابن عاشر بهـذا المعنى أعنـي أن الكـرامة لاتنقطع بالموت .

وكان ابن عاشر ، رحمه الله و نفـع به ، فريدا في الورع ميسرا عليه في ذلك أتم تيسير ، محفوظا من كل ما فيه شبهة ، كثـير النفور مـن الناس وخصوصا أصحاب الولاية في الأعمال . وخرجت على يده تلامذة صلحاء أخيار. وطريقته أنـه جعـل احيـاء علـوم الدين بين عينيـه واتبـع ما فيـه بجـد واجتهاد ، وصدق وانقيـاد . وكـان الحجـة فـي ذلك الطريق . وأول اجتمـاعي بـه نفـر عني فحبسته بيدي وهززتـه . فتبسـم ووقف معـي وسألني عـن نفسي ودعـا لي باللطف . ثـم ترددت اليـه وكنت أقف معه وطلبته فيمـا يطعمنـي . فـاعتذر لي بالاقـلال ثـم قـال لي : « أمهل ! » ودخـل فـأخـرج لي حبات من تـين يابسـة فـي يده اليمنـى وغطاهـا باليد اليسرى ودفعها الـي وضحك معـي وعجب الحاضرون مـن ليانتـه وانشراحه معي في معاملته لأنه كان لا ينبسط الى أحد من الناس وحصـل لي بـذلك فخـر لا يـدري قـدره الا من حـاول بعضـه معـه . وقصدني كثير من الخواص يسألني عما انطوى عليه مجلسي في لقائه وما وقـع من كلامـه وسؤاله ودعائه . وكان مما سألني عنه قال : « كيف الطريق ؟ » فأخبرته . ثم سألني عن سلطان الوقت من يكـون . فأعلمتـه بـاسمـه ثـم انقبض كالنادم على ذلك وقد حاول ملك المغرب لما ارتحل اليه في عام سبعة وخمسين وسبعمائة على لقائه . فلم يقدر على ذلك بوجه وحجبه الله عنه حتى تبعه يوم جمعة من الجامـع الأعظم على قدمه لمـا نعت لـه والنـاس ينظرونه وهـو لـم يـره فـرجع عنه . وقصده يومـا أسير من المسلمين فنظر اليـه وأخرج له سكين البقل . سمعت أن الأسـير باعهـا بالمزايدة في السـوق بسبعـة عشر دينارا ذهبـا . ولـم يكـن قوتـه الا من نسخ العمـدة فـي الحديث

كـان يبيعها ولا يأخذ الا قيمتها . ولا زالت حالته وبركاته فـي الزيـادة الى أن توفي ، رحمه الله ونفع به ، في سنـة خمس وستـين وسبعمائـة ودفـن داخـل مدينة سلا . وزرت قبره هنالك مـرارا .

فأنت ترى من هـذه صفتـه يصرح أن الكـرامـة لا تنقطـع بالمـوت ويحيل على ما هـو معـاين في السبتي ، رحمـه الله . وسألـه بعض الأخيار، بمحضري ، عـن الفـرق بـين مكـاشفة المسلـم ومكـاشفة النصراني لوجود ذلك من بعضهـم . فقـال لـه : « المسلـم الـذي لـه هذه الدرجـة يبرىء من العاهـة والنصرانـي لا . » ثـم قال لـه : « وهـل يبـرىء الفقـير مـن العـاهـة ؟ » فقال له : « نعم . » ثـم نظر يمينا وشمالا ليجد صاحب عاهة فيأتـي بالعيـان . فلـم يجـد أحدا وكـأنـه اغتاظ لهـذا السـؤال ثـم أخـرج يـده وقـال : « يأتي لمن تعطل عـن الحـركـة (١) . » فيحبسـه بيـده ويقيمـه [وقد ذهب ألمـه بعد أن حنا الى الأرض في الصفـة .] (٢) ثـم قال : « سأل بعضهم عن هذا وكان السائـل نصرانيـا في زي المسلـم فقـال لـه : الفـرق بينهمـا سقوط الـزنار مـن وسطك . قال : فسقط وفضحه الله وأسلم بسبب ذلك . » قلت : والأمر أجلى من أن يستدل عليه.

ومن كرامات الأولياء حفظ حفدتهم وقهر مريد الشر بهم (٣) وهو أمر معروف لا يفتقر الى بيان ، وقد وصف في غيرما موضع بالعيان ونختم هـذه المقدمة التي صدرت بها هذا الكتاب بوصيـة في بيتـين أنشدهمـا بعض الصالحـين وهمـا :

---

١ — كـ : ثـم جعل يدلني وقال : يأتي لمن تعطل عن الحركـة .
٢ — كـ : سقط ما بين منعقفـين .
٣ — كـ : حفظ متعلقاتهم وقهر من يناويهم .

قَـدْ أَحْـدَثَ ٱلنَّاسُ أُمُـوراً فَـلَا
تَعْمَـلْ بِهَـا إِنِّـي ٱمْـرُؤٌ نَـاصِحْ
فَمَـا جِمَـاعُ ٱلْخَيْـرِ إِلَّا ٱلَّـذِي
كَـانَ عَلَيْـهِ ٱلسَّلَفُ ٱلصَّـالِحْ (١)

ولي فـي هـذا المعنى :

أَلْفَقْرُ إِنْ فَكَّرْتَ فِيـهِ رَأَيْتَـهُ
قَـدْ دَارَ بَيْـنَ قَـوَاعِـدٍ مُتَتَـالِيَـةْ
فَـاطْلُبْهُ فِـي ٱلْقُـرْآنِ أَوْ فِـي سُنَّـةٍ
وَٱعْضُدْهُ بِـٱلْإِجْمَـاعِ وَٱتْـرُكْ تَالِيَهْ (٢)

ولنرجـع الى مـاكان القصد بسببه في ذكـر شيخنا والتعـريف بـه فـأقول : ان الشيخ العارف المحقق الـواحد القطب أبا مدين ، نفع الله بـه ، هـو شعيب بـن حسـين الأنصـاري الأنـدلسـي الأصـل مـن أحـواز اشبيليـة (٣) . كـان زاهـدا فـي الدنيا عارفـا بالله تعالى وخاض بحارا من الأحوال ، ونال من المعارف الـربانيـة الآمـال . ومقـامـه الخاص بـه الذي لايلحقـه فيـه أحد التوكـل على الله تعالى . وكان لـه بسط وقبض . فبسطه بـالعلـم ، وقبضه بالمـراقبـة . ولمـا تـوفي أبـوه كلفـه اخوتـه رعي مـواشيهم لأنـه أصغرهم سنا . فكان يخرج بها الى المرعى فـاذا رأى مصليـا أو قـارئا دنا منـه و وجـد في نفسه غمـا عظيمـا من كونه لايفعل مثلـه . فيحدث اخـوته ما يجده فينهـونه ويأمرونـه بالاشتغـال بالرعاية حتى اشتد غمـه لذلك وقويت عزيمته على سلوك هـذه المسالك . فتـرك المـاشية وفـر طالبـا لمـا مـالت اليه نفسه بتوفيـق الله . فـرده أحـد

١ — من السريـع .
٢ — من الكامل .
٣ — راجع ترجمة أبي مدين في التشوف ، ص ٣١٦ .

اخوتـه وهـدده بالحـربـة ثـم قـوي عـزمـه وفـر بالليل فـأدركـه بعض اخوته وسل عليه سيفه وضربه فتلقى الضربة بعود كان بيـده فتكسر السيف أجزاء . فعجب أخوه من ذلك وقال له : « يا أخي اذهب حيث شئت.» قال الشيخ أبـو مديـن : « فسرت حتى وصلت البحـر ووجـدت خيمـة فيهـا ناس . فخـرج الي منهـا شيخ فسألني عـن أمـري فأخبـرتـه . فجلست عنده فـاذا جعت رمى بخيط في طرفـه مسمار فـأخـذ حـوتـا ويطعمـه لي مشويا . ثـم قال لي : انصرف الى الحـاضرة حتى تتعلـم العلـم ؛ فـان الله تعالى لايعبد الا بالعلـم . قال : فخـرجت الى العـدوة ونزلت بطنجـة وانصرفت من هنالك الى سبتة فـاحترفت مـع الصيادين طلبا للعيش ثـم قلت : ما لهـذا قصدت . فانصرفت من هنالك الى مراكش وقصدت جماعـة الأنـدلس . فكتبوا اسمي فـي زمـام الأجنـاد . فقلت لبعضهـم : انمـا جئت للقـراءة . فقـال لي : عليك بفاس . فسرت اليهـا ولازمت جامعها ورغبت من علمني أحكـام الوضوء والصلاة ثـم سألت عـن مجالس العلماء فسرت اليهـا مجلسا بعد مجلس . وأنا لايثبت فـي قلبـي شيء ممـا أسمعه من المدرسين الى أن جلست الى شيخ كلما تكلم بكلام ثبت في قلبي وحفظته . فقلت : من هـذا الشيخ ؟ فقيل لي : أبـو الحسن ابـن حـرزهـم . فلمـا فرغ دنوت منه وقلت له : حضرت مجالس كثـيرة فلـم أثبت على ما يقـال ؛ وأنت كـل ما سمعت منك حفظته . فقال لـي : هـم يتكلمـون بأطراف ألسنتهـم فلا يجاوز كلامهـم الآذان وأنا قصدت الله بكلامـي فخرج مـن القلب . فـلازمتـه . »

قلت : وهذا الشيخ أبـو الحسن علـي بـن اسماعيـل بـن محمد ابن عبد الله بـن حـرزهم (١) . ولد بفاس ونشأ بها وكان فيهـا مـن كبار الفقهاء و كان زاهـدا في الدنيا سالكا سبيل أهل التصوف ، ذا كـرامـات و فراسات . وكان والده من كبار الصالحين وكذلك أخـوه . وحكوا عـن

---

١ — التشوف ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

ابي الحسن هـذه الحكاية المشهورة وذلك أنـه قال : « طالعت كتاب الاحيـاء للغـزالي في بيت مـدة من عـام كامل ؛ فجـردت المسائـل التي تنتقـد عليه فـرأيت فـي نومي قائلا يقـول : جـردوه واضربـوه حـد الفريـة ! فجـردت وضربت ثمانـين سوطـا . ثـم استيقظت فـوجـدت الألـم فـي ظهـري وجعلت أقلبـه وتبت الى الله تعالى مـن ذلك وتأملت المسائـل فوجدتها موافقـة للكتاب والسنـة . » وكـان يقـول : « ان رب العـزة أمنني ؛ اني رأيتـه في النـوم فقـال لي : سل حاجتك . فقلت : يا رب أسألك العفـو والعـافية في الديـن والدنيـا والآخرة . فقال : قـد فعلت . » (١)

وارتحـل آخـرا الى المشرق ولازم امـامة مسجد الشام سنين عدة . فقـدم الغـزالي مـع تلامذتـه ونـزل في ذلك المسجـد وكانت فيـه داليـة ظهر فيها الحصرم . فقال التلامذة للشيخ : « ياسيدنا اشتهينا حصرمة . » فقال لهـم : « اسألـوا امـام المسجـد عـن هـذه الـدالية من حبسها وعلى مـن حبست . » فجـازوا اليه وسألوه فقال لهـم : « لي هنا منذ كذا و كـذا ما سألت عنهـا قط ولا أكلت منها قط . » ورجعـوا الى الغـزالي فـأعلموه . فقـال لهـم : « هـذا مغـربي أم هـذا المسجد ، فما سأل عنهـا و لا أكـل منها وأنتم مـن يومكـم سألتم عنهـا وأردتـم الأكـل منهـا . » فوبخهـم على ذلك . (٢)

وكـان الشيخ أبـو الحسن ابن حـرزهم لا بـد له من الحمام فـي كل يوم . فلمـا كان اليوم الذي توفي فيه قال لخـدمة الحمام : « اليوم بقـي لكم وتستريحـون مني . » فلما خرج من الحمام دخل منزلـه واستلقى على ظهره فجـاء بعض تلامذتـه ليوقظه فوجـده ميتا . ولـه كرامات مشهورة .

---

١ – التشوف ، ص ١٥٠.

٢ – لقد نقل ابن قنفذ هـذه الحكايـة عـن التشوف ، غـير أنه وَهِـم في نقله ، اذ الرجل الذي كان امـاما بمسجد من مساجد الشـام هـو أبو محمد صالح بن محمد بن عبد الله بـن حرزهم ، عـم أبي الحسن ابن حـرزهم . راجـع التشوف ، ص ٧١ .

وكانت وفـاته ، رحمه الله ، في عـام تسعة وخمسين وخمسمائـة ودفـن خارج باب الفتوح من أبواب فاس . وقـد زرت قبره مرارا كثيرة زمـان اقامتي بالمغرب . وأول زيارتي له عام تسعة وخمسين وسبعمائة . وللوقوف على قبره بركات . فلازمه الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه ، وقـرأ عليـه رعـايـة المحاسبي وفهمها له . (١)

ولقي بفاس الأشيـاخ والأخيـار والفضلاء وقـرأ على الشيخ الفقيـه أبي الحسن ابن غالب (٢) فقيه فـاس كتاب السنن لأبي عيسى التـرمـذي وأقـام بفاس مدة طـويلـة لطلب العلـم . قال الشيخ أبو مـدين : « وكنت اذا سمعت تفسير آيـة من كتـاب الله تعـالى ، ومعه حديث واحـد مـن أحـاديث رسـول الله ، صلى الله عليه وسلـم ، قنعت بهما وانصرفت الى خـارج فـاس لمـوضع خـال من الناس اتخـذته مـأوى للعمل بما يفتـح علي مـن الآيـة والحـديث ثـم أعـود الى فـاس فـآخـذ آيـة وحـديثـا وأخـرج الى خلـوتي . قـال : وكنت اذا جلست بذلك المكان تأتيني غزالة تـأوي الي تشمني مـن قرني الى قـدمي وتؤنسني . فذهبت يـوما ، كان يوم الخميس ، الى فاس وبت بها يوم الجمعة فلقيني رجـل من الأنـدلس أعـرفـه فسلم علي وكان عندي ثـوب مودع عند رجـل من الأصحـاب . فسألته عنه وقلت لـه : بعه لـي فـانـي أريـد أن أدفـع ثمنـه لضيف وصل الي من الأندلس . فباعه بعشرة دراهم ودفعها الي . فطلبت الـرجـل فلـم أجـده فربطت الدراهـم في خـرقـة وجعلتهـا فـي مئزري وخرجت الى خلوتي على عـادتي وكانت في طريقي عمارة فيهـا جملـة كلاب ما رأيت أذى منهـم قط بل كانـوا يدورون بي ويبصبصون لي . فلمـا قربت مـن القريـة خرجوا الي واشتد نبحهـم حتى خـرج أهـل القـرية وحالوا بيني

---

١ — التشوف ، ص ٣١٩ .

٢ — هو أبو الحسن علي بن خلف بن غالب القرشي ، توفي عام ثمانية وستـين وخمسمائة . راجع التشوف ، ص ٢١١ و ص ٣١٩.

وبينهم . ثم وصلت الى خلوتي فجاءت الغزالة فنظرتني نظرا منكرا ثم صارت تنطحني بقرونها وأنا أتقيها بيدي . ففكرت في أمري وما رأيت من نباح الكلاب علي و نطح الغزالة . فقلت : ان ذلك من أجل الدراهم التي معي . فحللت الصرة ورميتها فسكنت الغزالة وركنت الي على عادتها . فلما انصرفت الى فاس أخذت الصرة وحملتها معي . فلما دخلت فاسا لقيت الرجل الأندلسي فدفعتها له ثم خرجت الى موضعي ومررت بالقرية فبصبصت لي الكلاب على عادتها فجائتني الغزالة وشمتني من قرني الى قدمي وركنت الي على عادتها . (١)

قال الشيخ أبو مدين : « وكنت أيام اقامتي بفاس أزور الشيخ أبا يعزى وأول زيارتي له أني رأيت جماعة تحدثوا على كراماته ونووا زيارته . فذهبت معهم اليه . فلما وصلنا أقبل على القوم دوني وأحضر الطعام فمنعني من الاكل معهم فاذا حضر الطعام وقمت اليه انتهرني . فأقول في نفسي : هؤلاء من هذه العدوة أقبل عليهم وأنا أندلسي . فأقمت كذلك ثلاثة أيام وقد أجهدني الجوع والذل ثم قلت في نفسي : اذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في ذلك المكان . فقام ومرغت وجهي ، فلما رفعت رأسي لم أبصر شيئا . فقلت : عميت فبقيت طول ليلي باكيا متضرعا فلما أصبح استدعاني وقال لي : اقرب يا أندلسي ! فدنوت منه وقمت لا أبصر شيئا . فمسح بيده على عيني فعاد بصري ثم مسح بيده على صدري وقال للحاضرين : هذا يكون منه كذا وكذا . فاستأذنته في الانصراف فأذن لي وقال لي : ترى الأسد يعترضك في الطريق فلا يروعك فان اشتد خوفك فقل له : بحرمة أبي يعزى اذهب عني ! ثم تجد ثلاثة من اللصوص عند شجرة فتعظهم فيتوب اثنان ويضرب عنق الثالث ويصلب على تلك الشجرة . » قال الشيخ ابو مدين ، رضي الله عنه : « فلقيني

---

١ - التشوف ، ص ٣١٩ _ ٣٢٠.

الأسد في الطريق فأقسمت عليه بأبي يعزى فتنحى عني وخرج عن الطريق . فلما خرجت من الشعب تعرض لي ثلاثة من الرجال فوعظتهم فأثر كلامي في قلب اثنين منهم فانصرفا وعاد الثالث الى الشجرة فسمع به بعض الولاة فأخذه وضرب عنقه وصلبه على تلك الشجرة . » (١)

وكان الشيخ أبو مدين يكرر زيارة الشيخ أبي يعزى وكان أبو يعزى يقول : « آشك (٢) آركاز الأندلسي . » ومعناه : آشك الرجل الأندلسي . فنال أبو مدين من بركاته وشاهد العجائب من كراماته . وكان يتردد الى مجالس العلماء في مدينة فاس وخصوصا مجالس الشيخ أبي الحسن ابن حرزهم حتى فتح الله عليه بالمواهب العلية والأسرار الربانية وحقق التوجه والعمل وبلغ في مقامه الأمل . قال محيي الدين بن العربي الحاتمي الطائي : « لم يمت حتى تقطب قبل أن يغرغر بثلاث ساعات . » والقطبية للعارف منتهى آماله وغاية مناله . ثم انصرف مشرقا وتردد في بلاد افريقية واستوطن في الآخر بجاية وكثرت تلامذته وظهرت بركاته عليهم . يقال انه خرج على يده الف تلميذ وظهرت لكل واحد منهم الكرامة والبركة . لذلك يقال له شيخ مشايخ الاسلام وامام العباد والزهاد . قال بعض الصالحين : « رأيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في النوم ومعه أبو مدين وأبو حامد ثم سأل أبو حامد أبا مدين ، رضي الله عنهما ، بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال : ماروح الروح ؟ فقال له أبو مدين : المعرفة . قال : فما روح المعرفة ؟ قال : اللذة . قال : فما روح اللذة ؟ قال : نظرة اليه . ثم غشيهم نور عظيم فأخذتهم الملائكة وصعدت بهم حتى غابوا في الهواء فقلت : هذه درجة علية ومكانة سنية . »

وكان الشيخ أبو مدين ، رضي الله عليه ، يلجأ اليه في حل

---

١ – التشوف ، ص ٣١٨ .

٢ – كذا في المخطوطات . غير معربة ومعناها : تلف وكاف آركاز معقودة.

المشكلات . فيأتي بأبدع التأويلات . ذكر بعضهم أنه وقع نزاع بين الطلبة في قوله ، صلى الله عليه وسلم : « اذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة » . فتردد الكلام بينهم في أن مؤمنين اذا ماتا استحقا الجنة بكمالها . فصاروا الى مجلس الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، ليطلعوا على ما عنده في المسألة . فوجدوه جالسا يقرأ رسالة القشيري . فلما استقر بهم الجلوس سكت الشيخ أبو مدين عن الكلام الذي كان فيه وقال : « نزيل الاشكال عن أصحابنا من غير أن يسألوه . » فقال لهم : « انما أراد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، نصف جنته لأن لكل مؤمن جنة تخصه ؛ فاذا مات أعطي نصف جنته وبعد الحشر يعطى النصف الثاني . » ثم زاد في هذا الكلام وتكلم كيف يكشف للمؤمن عن مقعده في الجنة وتنعمه بتلك الرؤية واتصال الأرواح وغير ذلك مما يناسب هذا الكلام وفي هذا من العلم مالا ينتهي الى حقيقته الا أهل الصفا وأصحاب المواهب كالشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، وجعلنا الله من حزبه بفضله .

وكان الشيخ ، رضي الله عنه ، مشغولا بالتربية و الافادة والتعليم والعبادة والاقبال على الله تعالى في الظاهر والباطن . وقد ألف بعض الفضلاء في كراماته . و له بالنسبة لكل انسان كلمات (١) حسان في أصول هذا الشان بالكلام العجيب والمنزع الغريب . وأنا أورد من ذلك ما لا بد منه مما صححته بالواسطة عنه . وكل كلمة من كلامه اذا اقتصر المقتصر عليها فتح عليه بسببها ونال المؤمل من طلبها وحصل له المرام وميز بالفضل بين العباد و لولا الاطالة لبينت لك كل كلمة على شواهدها وظهور فوائدها بطريق الصوفية وعوائدها . لكن في حفظها والعمل بها ما يرقي الى منازل

---

١ — را ، رب ، ق : اسدات حسان ؛ ف : اسرات . (ولعلها اشارات ؟)

الأبـرار ويـوصل الى عالـم المقربين الأخيـار ، جعل الله السعي في ذلك موصلا الى الـزلفى لديـه . انه ولي ذلك والقادر عليـه .

فمن كلامه ، رضي الله عنه : « أسماء الله تعالى بها تعلـق وتخلـق وتحقق . فالتعلق الشعور بمعنى الاسم ؛ والتخلق أن يقوم بك معنى الاسم ؛ والتحقق أنتفنى في معنى الاسم . ــ وقال : الحق، تعالى، مطلع على السرائر والضمائر في كل نفس و حـال ؛ فـأي قلب رآه مـؤثـرا لـه حفظه مـن الطوارىء والمحـن ومضلات الفتن . ــ وقال : اياك أن تميـل الى غـير الله فيسلبك لـذة منـاجاته . ــ وقال : من رأيتـه يدعي مـع الله تعالى حـالا لا يكـون على ظاهره شاهـد منه فاحذره . ــ وقال : من رزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم . ــ وقال : من عرف الله استفاد منه في اليقظـة والنوم . ــ وقـال : لايصلـح (١) سمـاع هـذا العلـم الا لمـن حصلت لـه أربعـة : الـزهـد ، و العلـم ، والتـوكل ، واليقـين . ــ وقـال : اجعـل الصبـر زادك ، والـرضى مطيتك ، والحـق مقصـدك و وجهتك . ــ وقـال : مـن تعلـق بـدعـوى الأمـاني لايفـارق التـواني . ــ وقـال : مـن اشتغـل بطلب الدنيـا ابتلـي فيهـا بـالـذل . ــ وقـال : جعـل الله قلـوب أهل الدنيا محلا للغفلة والوسواس وقلوب العارفين محلا للذكر والاستئناس . ــ وقـال : لا ينفـع مـع الكِبّـر عمل ولا يضر مع التواضع بطالة . ــ وقال : الفترة الاشتغال بالخلـق عـن الخالق . ــ وقال : الهـوى (٢) قليل فـي أهـل الصلاح . ــ وقال : مـن لـم يجـد في قلبـه زاجـرا فهـو خـراب . ــ وقـال : تـوكل على الله حتى يكون الغـالب على ذكـرك ، فـان الخلـق لـن يغنـوا عنك شيئا . ــ وقـال : بـالمحـاسبة يصل العبد الى درجـة المـراقبـة . ــ وقـال : مـن أهمـل الفـرائض فقـد ضيـع نفسـه . ــ وقال : من عـرف نفسه لـم يغتر بثنـاء الناس عليـه . ــ وقـال : الدعوى

---

١ ــ ق: لا يصح .
٢ ــ رب ، ف ، ق : أهـل الهدى

مـن رعـونـة النفس . ـ وقـال : أبنـاء الدنيـا يخدمهـم العبيد والامـاء وأبناء الآخـرة الأحـرار و الكـرمـاء . ـ وقـال : مـن خـدم الصالحـين ارتفـع بخدمتـه . ـ وقـال : من حرم احتـرام الأوليـاء ابتلاه الله بالمقت من خلقـه . ـ وقـال : ثمـرة التصوف تسليم كله . ـ وقـال : من تـرك التدبـير والاختيـار طاب عيشه . ـ وقـال : مروءتك اغضاؤك عـن تقصير غيرك . ـ وقـال : الغيبـة عـن الحق خيبـة : ـ وقـال : التعظيم امتـلاء القلب باجـلال الـرب . ـ وقـال : المهمـل في الاحـوال لا يصلـح لبساط الحـق . ـ وقـال : كل حقيقة لا تمحو أثـر العبد و رسمه فليست بحقيقة . ـ وقـال : مـا عرف الحـق من لم يـؤثـره وما أطاعـه من لم يشكره . ـ وقـال : المـروءة مـوافقة الاخـوان في مـا لايحظره العلـم عليك . ـ وقال : قـوة العـارف بمعـروفه (١) وقـوة الغـير بمعتـاده ومـألوفه . ـ وقال : من أراد الصفا فليلتـزم الـوفا . ـ وقـال : أسس هـذا الشأن على الزهد والاجتهـاد . ـ وقـال : التذاذك بالبلاء تحقيق بالرضى . ـ وقـال : الفقـر أمـارة على التوحيد ودلالة على التفريد . ـ وقـال : الـزهـد فـريضـة وفضيلة وقربة . فـالفـرض في الحـرام والفضل في المتشـابـه والقـربـة في الحـلال . ـ وقـال : من قطـع موصولا بـربه قطـع بـه . ـ وقال : من شغـل مشغولا بـربه أدركـه المقت . ـ وقـال : يا نفس هـذه مـوعظـة لك ان استيقظت ـ وقال : مـن استكـن لغير الله تعالى نـزع الله الرحمة مـن قلبـه . ـ وقـال : عـلامة الاخلاص أن يغيب عنك الخلـق في مشاهدة الحـق . ـ وقـال : احـذر صحبـة المبتدعـة اتقـاء على دينك واحـذر صحبـة النساء اتقـاء على ايمان قلبك . »

و اعلـم ان كلام الشيخ ، رضي الله عنه ، كلـه دال على علـو مقامـه وبـديـع قصده ومـرامـه .

وأمـا كـراماتـه وأحـواله الصادقـة والخبر الصادق فكثير . وبلغ ،

---

١ ـ كـ : قـوة العارف بمعرفته .

رحمه الله ، من الورع مقاما عليا ونال من الزهد والتحقيق منالا سنيا تبعه فيه المتقون واقتدى به المحققون ولازمه المصدقون وله أشياخ مشاهير واخوان جماهير وأصحاب جواهر وأنا أشير الى بعضهم قصد التبرك به وبهم وليس المراد التعريف بالرجال وانما المراد بعض ذكر شواهد الأحوال .

فمن أشياخه الشيخ الفقيه الصالح أبو الحسن علي ابن حرزهم قد قدمنا ذكره في صدر هذا الكتاب فأغنى ذلك عن اعادة التعريف به . وقد ألف بعضهم تاليفا حسنا في التعريف به وذكر فضائله وعلمه وكراماته . ومن أخباره أنه قدم مراكش فاستدعاه بعض أمراء صنهاجة ليقرأ عليه فأجابه الى ذلك فجلس الأمير على السرير وجلس أبو الحسن تحته فقال له أبو الحسن : « هكذا تفعل مع أشياخك ؟ » فقال : « نعم . » فقال له أبو الحسن : « أنا هو الذي أكون على السرير وتنزل أنت الى مكاني وهذا من أدب المتعلم مع المعلم . » فقال الأمير : « نعم . » فنزل وجلس أبو الحسن على السرير ولازمه وما زال يأخذه بسلوك الطريق والتضييق حتى لم يجد الأمير مايقتات به الا ما يدفع اليه بعض التجار عن طيب نفس وبلغ الأمير من بركته النهاية من مقام الورع وهذا من بركته رضي الله عنه (١) .

وكان كثيرا ما ينشد :

أَوَ آللهِ كَمْ هَـذِي آلْمَعَاصِي إِلَى مَتَى
وَأَرْيَاحُ أَثْقَالِ آلصَّبَا عَنِّي رَاكِدَةٌ
إِلَاهِي رَجَائِي مِنْكَ غُفْرَانُ زَلَّتِي
وَ إِصْلَاحُ حَالَاتِي آلَّتِي هِيَ فَاسِدَةٌ (٢)

---

١ – التشوف ،ص ١٤٨ .

٢ – من الطويل . ف : رياحي أثقالي عن صباغي راكدة ؛ ق : رياح أثقالي عن صبا عني راكدة ؛ ك : أسقط منه البيت الأول.

و مــن أشياخ الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ أبو يعــزى يلنــور بن عبد الله (١) وكان مــن آيــات الله تعــالى وأمــره كلــه عجيب . ونقلت كــرامــاته نقل التواتر . حــدّثْ عن البحر ولا حــرج . قال الشيــخ أبــو مدين ، رضي الله عنه : « طالعت أخبــار الصالحين من زمن أويس القرني الى زمــاننا فما رأيت أعجب من أبــي يعــزى وطالعت كتب التذكير فمــا رأيت كــالاحيــاء للغــزالي . » (٢) وكــان قــوت أبي يعزى نبــات الأرض يــأكل هــدب الدفلى (٣) ويطعــم للزائريــن اللحم والعسل . وكان في صفته طويــلا أسود اللــون وكان لباسه جبــة من تليس مطرق وبرنسا أســود وشاشيــة مــن عــزف .

ومــن أشياخ أبــي يعــزى أبــو شعيب أيوب بــن سعيد الصنهاجي وهــو المعــروف بــأيوب الساريــة (٤) ويقــال لــه أبــو شعيب آزمور وتوفي سنة احــدى وستين وخمسمائــة . وهــو مــن مشاهير الأوليــاء وممن يطير في الهــواء . وشيخــه أبو ينور عبد الله بن واكريس المشنزائي (٥) وأبــو ينــور من أقــران أبــي جعفــر آمغــار الذي ببلد تيطنفطر . وهــذا

---

١ – في جــل مخطوطــات التشوف : أبو يعزى يلنور بن ميمــون ؛ و في جذوة الاقتباس ، ص ٣٥٤ : ... يلنور بن عبد الله . فيمــا يخص الاختلاف الذي وقــع حــول نسب أبــي يعــزى راجــع مجلة هسبيريس ، ج ٣١ ، سنة ١٩٤٤ ،ص ٣١ .

٢ – التشوف ، ص ١٩٥ .

٣ – التشوف ، ص ١٩٧ ؛ وفي ق : هدف الدفلى ؛ أما في كــ : ورق . والهــدب كــل ورق ليس لــه عــرض .

٤ – التشوف ، ص ١٦٦ .

٥ – رب ، ف ، ق : أبو ينور عبد الله وكديس المستاري ؛ را : أبــو ينــور وكريس المستاري ؛ كــ : أبو ينور عبــد الله وكــريس المستــاري . ونحن نظــن أن الصــواب : أبــو ينــور عبــد الله ابن وكــريس ، كما جــاء في التشوف . أمــا النسبة فليست هي المشتــري أو المستــارى بــل هــي المشنــزائــي وفيما يخص هــذا الــولــي راجــع التشــوف ، ص ١٠٨ .

البيت اكبر بيتة في المغرب في الصلاح لأنهم يتوارثونه كما يتوارث الناس المال (١) . وقد دخلت بلدهم و رأيت أبناء بني آمغار نفع الله بهم و بأسلافهم . وكان أبو ينور ، نفع الله به ، بقرية يليسكاون (٢) في زمن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني . وهو الذي وجه عسكره الى هذه القرية فجاؤوا الى أبي ينور فقال لهم : « ردهم الله عنكم ! » فلما بقي بينهم وبين الطريق قدر نصف ميل أصاب القائد وجع فمات .

وقال أبو شعيب يوما في مجلسه : « ان الله تعالى يعطي الدنيا كما يعطي الآخرة . فمن كانت له حاجة من أمور الدنيا فليذكرها لنسأل الله تعالى فيها . » (٣) وهذا لا يقوله الا زعيم في الرجال . وكان من عادته اذا حل في موضع لايجلس حتى يصلي ركعتين . وصلى عيد الأضحى بآغمات وانصرف الى بلد آزمور فوجد أهله يريدون ذبح الأضحية وبين البلدين أربعة أيام (٤) . و أرسل الى أبي يعزى فقال له :« لاتفضح الناس . » فقال أبو يعزى : « يرسل الي أيوب ويقول لي : لا تقل ؛ وما باختياري أقول ما أقول ، والله ، ما كان مني . » قال أبو يعزى : «خدمت أربعين وليا من أولياء الله تعالى منهم من ساح ومنهم من بقي بين الناس . » قال ميمون التاروطي (٥) ، رحمه الله : « زرت أبا يعزى وأقمت عنده فوصلت جماعة من فاس برسم الانكار عليه فوثب السبع على دابة من دوابهم . فصاح أبو يعزى عليه وجذبه من أذنيه وقال لأصحابه : اركبوه . ففروا

---

١ – راجع التشوف ، ص ١٩٠ ، ٢١٧ ، ٤٤٥ .
٢ – ف : سيسكاون ؛ ق : ييبيسكاون (؟) ؛ كـ : بيسكاون . والصواب كما جاء في التشوف : يليسكاون أو يليسكَوْن .
٣ – التشوف ، ص ١٦٩ .
٤ – التشوف ، ص ١٦٨ .
٥ – ونحن نظن ان الصواب الباروطي كما جاء في التشوف راجع ص ١٩٨ .

منـه . فركبته أنـا فكنت أحس بوبـره نفذ في ثـوبي . » وشكا النـاس اليه مـرة احتباس المطر . فرمى بشاشيته وبقي رأسه أبيض ونظر وقـال : « يا مولاي هـؤلاء السادة يطلبـون من هـذا العبد المطر . ما قـدري أنـا حتى يطلب مني المطر ؟ » ثـم بكى فـأنزل الله المطر . (١)

وكان الشيخ الفقيه الصالح الشهير أبو محمد يسكر بن موسى (٢) فقيه فاس كثـير الزيـارة لـه وهـو شيخ أبي محمد صالـح الهسكـوري الذي ينسب اليـه شرح الرسالة وشيخ أبـي محمد يسكـر أبـو خـزر يخلف الأوربي الفقيـه (٣) . وتوفي أبو محمد يسكـر عـام ثمـانيـة وتسعـين وخمسمائـة . وحـدث عن بعض الأوليـاء قال : « طلبنـا التوفيق فـوجدناه في اطعام الطعـام . » ودخـل أبـو محمد يسكـر جامع فاس بالليـل وليس فيه قنديـل فـأضاء منه الجامـع حتى صلى وخـرج وعاينه الناس . وأبـو خـزر هـذا هـو الذي كان بعدوة الأندلس من فـاس المحروسة . وكـان أبـو الحسن علي ابـن حـرزهم في عدوة القرويـين منها . وجـاء رجـل الى أبي الحسن ابن حرزهم فقـال لـه : « رأيت البارحـة شمعتين مشعولتين بعـدوة الأنـدلس من فاس المحروسة والأخـرى بعـدوة القـرويـين والتي بعـدوة الأندلس أكثر ضياء من الأخرى . » فقـال أبـو الحسن : « أما التي بعـدوة الأندلس فهـو الفقيـه أبو خزر ، وأمـا التي بعدوة القرويـين فأنا . وانمـا كنت أقـل ضيـاء لكثرة مزاجي مع الناس . » فكان الفقهاء يزورون أبا يعـزى واذا رآهـم يلحس أقـدامهـم ويقول لهـم : «مـرحبا بموالينا ! مـرحبا بمصابيح الـدنيا » .

قلت : وأبو محمد هذا هـو شيخ الفقيه راشد بـن أبي راشد الوليدي صاحب كتاب الحلال والحـرام . والفقيـه راشد شيـخ الفقيـه الشهـير أبي الحسن الصُغَيّر . والفقيه أبـو الحسن الصغير شيخ الفقيـه أبي محمد

١ – التشوف ، ص ١٩٩ .
٢ – التشوف ، ص ٣٣٨ .
٣ – التشوف ، ص ١٥٧ .

عبد العزيز القروي ، نفع الله به . وهو الذي قال له السلطان أبو الحسن المريني : « تخرج مع عامل الزكاة . » فقال له عبد العزيز هذا : « أما تستحي من الله تعالى ! تأخذ لقبا من ألقاب الشريعة وتضعه على مغرم من المغارم ! » . فضربه السلطان بالسكين التي يحبسها على عادته في يده وهي في غمدها وضربه بها جملة وقال له : « هكذا تقول لي ؟ » . فبادر اليه الوزير وأخذ بيده وأخرجه اطفاء لغيظ السلطان . وقام السلطان الى داره وما جلس الا وقد اشتد وجع يده التي ضربه بها ثم خرج فقال : « ردوه الي ؟ » فردوه فاعتذر اليه وقال له « طيب نفسك علي فاني علمت أنك ما قلت لي الا الحق ! » فقال : « الله يغفر لي ولك . » وانصرف وكان السلطان بعد هذا المجلس يزوره بداره وكان لا يدخل شيئا من الباب حتى يعطي المغرم المعلوم ويقول : « أكره أن أمتاز عن الناس بشيء . » وهو الذي جمع تقييد المدونة على الفقيه أبي الحسن الصغير وهو الآن محبس بفاس بخط يده . وأما التقييد الكبير فجمعه رجل من صدور الطلبة يقال له اليحمدي . قال بعض الفقهاء : « دخلت عليه وهو ملتحف في كسائه وكتب الفقه مبسوطة بين يديه وأعراقه تقطر عليه وكساؤه في غاية من الوسخ فقلت له : « ارفق بنفسك واغسل كساءك ! فقال لي : ستة أشهر نروم غسلها وما وجدت سبيلا لذلك من أجل هذا الشغل . وتعجبت منه وانصرفت . »

وأبو محمد عبد العزيز هذا شيخ شيخنا ومفيدنا طريقة الفقه الشيخ الحافظ أبي عمران موسى بن محمد بن معطي شهر بالعبدوسي . وشيخ شيخنا العبدوسي أيضا الشيخ الصالح الشهير أبو زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي الذي ينسب اليه شرح الرسالة . وتوفي في حدود أربعين وسبعمائة . وشيخه الفقيه راشد كان مؤيدا في الرسالة ، معروفا بالفضل والصلاح والانقطاع الى الله

تعالى . وتوفي شيخنا العبدوسي ، رحمه الله ، في أوائل سنة ست وسبعين وسبعمائة . وكان في مجلسه يشير لنا بذلك . و كان مجلسه أعظم المجالس بفاس يحضره الفقهاء والصلحاء والمدرسون وحفاظ المدونة وتحضر من نسخها بيد الطلبة مايقرب من الأربعين . وكان له ادلال عجيب في اقراء التهذيب . سمعته يقول : « لي أربعون سنة نقرىء المدونة » . وفي العام الذي توفي فيه وقف قارىء الرسالة على باب الجنائز . فكره الطلبة ذلك وأرادوا الزيادة . ففهم عنهم وقال لهم : « كرهتم الوقوف على باب الجنائز والله لا أقف الا عليه . » فوقف القارىء عليه وتوفي الشيخ في تلك السنة . ولا رأيت في الفقهاء أعظم تعظيما للشيخ أبي يعزى وكان في أكثر مجالسه يذكر لنا ما تَبَدَّى (١) من أحواله ويشير أن ما ثم في الأولياء مثله . وكان يحكي عنه في باب زكاة الحرث أنه اذا حرث يخرج للضعفاء تسعة أعشار صابته ويتمسك بالعشر و يقول : « من سوء أدب أن أخرج العشر وأتمسك بتسعة أعشار . » وحدثنا أيضا أن الشيخ أبا الحسن علي ابن حرزهم سجنه السلطان بمراكش فقال لتلامذته : « لا ألبث في السجن ! » فقالوا له : « سبحان الله اسكت وهل سجنت الا على هذه الأحوال . » فقال لهم : « ان الشيخ أبا يعزى ها هو ذاك ينظرني ولا يتركني فانه كل ما يطلبه من مولاه يعمله له . » وبينهما مسيرة خمسة أيام فأطلق من ساعته . (٢) ووقفت على هذه الحكاية لغيره . وما زال شيخنا العبدوسي ، رحمه الله ، يكررها في المجلس . وقد جمع العزفي ، رحمه الله ، في كرامات أبي يعزى مالا أطول بذكره . وكانت وفاة أبي يعزى رحمه الله ، في شوال من عام اثنين وسبعين وخمسمائة .

---

١ – في كل المخطوطات : تبدا ؛ وفي كـ : ... يذكر لنا مبادىء من أحواله .

٢ – التشوف ، ص ١٥١ .

وتـرك أولادا . رأيت شيخـا من أحفاده على صفة جده فـي لـونـه وقده . وتبركت بـه وذلك فـي عـام واحـد وستين وسبعمائـة . وكـان غرضي الوقـوف على قبره فبقي بيني وبـين موضعـه بتـاغية جـوفي تادلا نصف يـوم . فعدمت الرفيق لخـوف الطريق فرجعت . والمـؤمل حصول الثواب ان شاء الله تعالى .

بِـآللّهِ إِنْ كُنْتَ قَدْ خَيَّمْتَ عِنْدَهُمُ
بِـآلْمُنْحَنَـى بَيْـنَ أَنْجَـادٍ وَأَجْـوَادِ
هَاتِ آلْحَدِيثَ عَنِ آلْمَغْنَى وَسَاكِنِهِ
وَآرْفَـعْ لِسُنَّتِـهِ آلْعَلْيَـاءِ إِسْنَـادِي
وَ أَرْوِنِي مِنْ حَدِيثِ آلشَّيْخِ أَعْذَبَـهُ
فَـإِنَّـهُ آلـرَّيُّ يَشْفِي غُلَّـةَ الصَّادِي (١)

ومن أشياخ الشيخ أبـي مديـن ، رضي الله عنـه ، الشيـخ الفقيـه الصالح أبـو الحسن علي ابن غالب مـن فقهـاء فـاس الـذي قـرأ عليـه الشيخ أبـو مدين السنن لأبـي عيسى الترمذي فـي حديث النبـي ، صلى الله عليه وسلـم . ولازمـه وتفقـه عليـه وتـوفي ابن غالب فـي حـدود التسعـين وخمسمائة (٢) وكان الأوليـاء يحضرون مجلسه . وحدث بعضهم أنـه ورث مـن أبيـه اثني عشر ألف دينار . فتصدق بها كلهـا و قـال : كـان والده لا يحسن الفقـه . فسمع بذلك شيخه أبـو العباس بن العريف فقـال : « يـا أبـا الحسن هـلا طهـره الثلث ! » وحـدثوا عنـه أنـه اذا اشكلت عليه مسألة علميـة نظر الى جهـة مـن جهـات البيت فيجـدهـا مكتـوبـة في الجـدار .

---

١ – من البسيط .
٢ – وفي التشوف : مات عام ثمانية و ستين وخمسمائة (ص ٢١١) .

مَـا ٱلنَّاسُ إِلَّا ٱلصَّالِحُـونَ حَقِيقَـةً
وَسِـوَاهُـمُ مُتَطَفِّـلٌ فِـي ٱلنَّاسِ (١)

ومن أشيـاخ أبـي مـديـن ، رضي الله عنه ، الشيـخ الصالح أبـو عبد الله الدقـاق من أكابر الصوفيـة (٢) . وكـان يتردد مـن فـاس الى سجلماسة وكان يقول : « أنا أول مـن أخـذ عنه الشيخ أبـو مـدين علـم التصوف . » وكـان الدقاق امـامـا في ذلك وفلتت منـه يـوما كلمة بـين أصحابـه ذكر فيهـا ضيق حالـه فـرأى بعضهم قائلا في النـوم يقـول : أنشـد الـدقـاق :

قُـلْ لِلرُّوَيْجِـلِ مِنْ ذَوِي ٱلْأَقْـدَارِ
ٱلْفَقْـرُ أَفْضَـلُ شِيمَـةِ ٱلْأَحْـرَارِ
يَا مَنْ شَكَا لِلنَّاسِ فَعْلَـةَ رَبِّـهِ
هَـلَّا شَكَـوْتَ تَحَمُّـلَ ٱلْأَوْزَارِ
إِنَّ ٱلَّـذِي أُلْبِسْتَ مِـنْ حُلَلِ ٱلتُّقَى
لَـوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ عَنْهُ عَارِي (٣)

ومـن اخـوان الشيخ أبـي مديـن ، رضي الله عنه ، الشيخ الشهير أبـو زكـرياء يحيى بن أبـي علي الزواوي (٤) المدفـون بخارج بجاية وكان عالمـا صالحـا زاهدا . حكى الفقيه القاضي أبو محمد بن كحيلا البجائـي وكانت ولادتـه عـام اثنـين وستمائة ووفـاتـه في ذي حجـة عـام خمسة وثمـانين وستمائة قال : أخبرني أبي ، رحمه الله ، أنه سمع من الشيـخ أبي زكرياء قـال : «كنت أحضر مجلس ابـن عوف ، يعني أبا الطاهـر ،

١ — مـن الكامـل . راجـع التشوف ، ص ٩٦.
٢ — التشوف ، ص ١٣٥ .
٣ — من الكامل . راجـع التشوف ، ص ١٣٦ .
٤ — التشوف ، ص ٤٤٧ .

بالاسكندرية ـ قال : ويحضر معنا رجلان خيران كانا اذا سمعا حديثا في تهذيب الأخلاق اهتزا . فتبعتهما يوما بعد خروجهما من المجلس حتى جازا باب البلد ، فالتفت أحدهما الي وقال لي : ارجع فانك لاتقدر على السير . فطلبتهما في الدعاء فقالا لي : علمك الله ماتنتفع به . وانصرفا ووقفت متحيرا واذا بقافلة فيها ركبان ورجال قالوا لي : من أين قمت اليوم ؟ فقلت لهم : خرجت من الاسكندرية الساعة . فضحكوا مني واستحمقوني . فأقبل علي شيخ منهم فاستفهمني فأخبرته . فقال لي : هذه مصر قريبة منك . فرافقتهم فدخلت الاسكندرية بعد أربعة أيام فوصلت ابن عوف فلما رآني قال لي : نفرتهم عنا يا يحيى ! »

وكان يقول : « لاتحقروا أحدا من السؤال . كان واحد يعتادنا عند العشاء فندفع اليه ما تيسر لنا . فأخرجنا له ليلة جميع العشاء لأني كرهت أكله من أجل أنه طبخ بماء طلبته الزوجة من الجيران . فرده وقال : تطعموني ما نزهتم أنفسكم عنه ! » وكان له كرسي بجامع بجاية يقرىء عليه العلم . وأكثر ما يقرىء التفسير والحديث . وكان كثير الخوف من الله عز وجل كثير التخويف للناس يحذرهم جهنم وحرها وعذابها وشرها . قال له الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه : « لا تقنط الناس وذكرهم بأنعم الله تعالى . » فقال : « لا أقدر الا على هذا . » وذكر يوما في مجلس اقرائه النار و أهوال يوم القيامة فقال له بعض الطلبة : « شوقنا الى الجنة ! » فصاح حتى غشي عليه وقال له : « متى خرجنا من النار حتى ندخل الجنة ؟ » ولم يرج الناس ويطمعهم الا في يوم موته وقال لهم في ذلك اليوم ـ وهو يوم الجمعة بعد أن صلاها منتصف رمضان المعظم من عام أحد عشر وستمائة ، رحمه الله ونفع به وقبر الشيخ الولي الصالح المكاشف أبي الفضل قاسم القرطبي قريب منه ، وأبو الفضل هذا من تلامذة الشيخ أبي أحمد ، رضي الله عنه ونفع به ، وكان من كبار الصالحين وكانت وفاته عام اثنين وستمائة ـ :

طُوبَــى لِمَنْ قَلْبُــهُ بِــٱللَّهِ مُشْتَغِــلُ
يَبْكِي ٱلنَّهَارَ وَطُــولَ ٱللَّيْلِ يَبْتَهِلُ
خَوْفُ ٱلْوَعِيدِ وَ ذِكْرُ ٱلنَّارِ أَحْـرَقَـهُ
وَٱلدَّمْعُ مِنْهُ عَلَى ٱلْخَدَّيْـنِ يَنْهَمِلُ (١)

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو علي يعزى ابن الشيخ أبي يعزى وكان في حياة أبيه يحب الرئاسة والدنيا ولما احتضر والده حرص على رؤيته . فاختلف الناس اليه فجاءه بعد أن نزع ثيابه التي لا تليق بالفقراء ولبس غيرها ودخل على أبيه فقبل رأسه . فقال له والده : « تب الى الله يايعزى . » فقال : « تبت الى الله تعالى . » كلمه بذلك ثلاث مرات وابنه يجيبه بمثل ما أجابه أولا . ثم قال : « افتح فاك يا ولدي . » ففتحه ، فبصق الشيخ فيه بصقة . ثم مات وخلفه ابنه وقام مقامه ولحق بالأولياء من ساعته . قال أبو عبد الله التاودي ، رحمه الله : « حضرت عند أبي علي يعزى وجيء له برجل قعد عن الحركة . فما زال يتفل عليه حتى قام . ـ وقال التاودي حضرت عند أبيه قبل موته بيسير ، فرأيت ثورا أكحل اللون وهو يلحس بلسانه في الشيخ أبي يعزى والشيخ يمسح عليه بيده ويقول : أي صنيع يصنع به ! ـ قال التاودي : فذبح بعد موته وصنع للناس منه الطعام . » (٢)

مِنْ أَيْنَ أُرْضِيكَ إِلَّا أَنْ تُوَفِّقَنِي
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مَا ٱلتَّوْفِيقُ مِنْ قِبَلِي (٣)

---

١ – من البسيط .
٢ – التشوف ، ص ٢١٤ .
٣ – من البسيط .

ومن اخـوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبـو جعفـر محمد بن يوسف الصنهاجي (١) وكان مشهور الكرامة ومـن كبـار الصالحين قال : « زرت الشيخ أبـا يعزى مـائة مـرة و مـا وجـدت الا بركة الـرجال . » وكان الشيخ أبـو يعزى يناديه من مكانـه فيجيبـه : نعـم . وبينهما خمسة أيـام . فعاتبه مـرة وقال له : « ناديتك ثلاث مـرات فلـم تجبني الا فـي الثالثة فاستغفر الله تعالى ! »

مَازِلْتُ مُذْ سَكَنُوا قَلْبِي أَصُونُ لَهُمْ
لَحْظِي وَنُطْقِي وسَمْعِي إِذْ بِهِمْ أَنَسِي (٢)

ومن اخـوان الشيخ أبي مديـن ، رضي الله عنه ، الشيـخ الفقيـه الصالح أبـو عبد الله التـاودي (٣) بفاس وكان يعلم الأولاد القـرآن و يأخذ الأجـرة مـن أولاد الأغنيـاء خاصة ويدفعهـا لأولاد الفقـراء وكـان يخيط ثياب المساكـين . وتوفي في عـام ثمانـين وخمسمائة . قال الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه : « جـاء رجـلان الى أبي عبد الله التاودي يزورانـه . فأبصرا بين يديـه هـرين جعـل كل واحـد منهمـا رأسه على الآخـر فقالا لـه : هكذا ينبغي ان تكون الأخوة . فـأخـذ التـاودي لقمـة مـن خبـز و رمى بها اليهما . فـوثب كل واحـد منهما على الآخـر ليأخـذ اللقمـة . فقـال أبـو عبد الله : هكذا كانت الأخوة حتى دخلت الدنيا فأفسدتها . »

رِجَـــالُ آللَّهِ سَادَاتٌ كِرَامٌ
لَهُـمْ فِـي آلْخَيْـرِ إِنْ لَاحَ آنْبِعَـاثُ
فَهُمْ لِلنَّاسِ فِـي آلـدُّنْيَا أَمَـانٌ
مِنَ آلْأَمْـرِ آلْمَخُـوفِ وَهُـمْ غِيَـاثُ

١ – التشوف ، ص ٤١٥ .
٢ – من البسيط .
٣ – التشوف ، ص ٢٦٣ .

أَبَانُوا صُحْبَةَ ٱلدُّنْيَا وَقَالُوا
طَلَاقُكِ فِي شَرِ يعَتِنَا ثَلَاثُ (١)

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن ابراهيم الصنهاجي وشيخه الشيخ أبو الحسن ابن حرزهم . وكان من عباد الله الصالحين وقبره بالاسكندرية . قدم اليه بعض أصحابه تينا طريا فأبى أن يأكله وقال :

صَبَرْتُ عَنِ ٱللَّذَّاتِ لَمَّا تَوَلَّتِ
وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي هَجْرَهَا فَٱسْتَقَلَّتِ
وَ كَانَتْ عَلَى ٱلْأَيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةً
فَلَمَّا رَأَتْ صَبْرِي عَلَى ٱلذُّلِ ذَلَّتِ (٢)

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو تميم عبد الرحمن الهزميري (٣) وكان حافظا للمسائل وقبره قريب من مكناسة الزيتون (٤) . حدث عنه الشيخ الصالح أبو الحسن بن عبد الكريم قال : « أعجب ما رأيت من أخبار الصالحين أني مشيت بأختي حين ظهر البرص بها في الوجه الى مدينة فاس ليعالجها الأطباء . وحملت معي بسبب ذلك نفقة ، فلم ينفع الدواء . فرجعت بها وقصدت زيارة أبي تميم . فلما دخلت عليه قال لي : ما سويت عندك شيئا حين تركتني وذهبت الى الأطباء! فخجلت وبتنا عنده . فلما صلينا الصبح وقعدنا في مصلانا جاءته أختي وسلمت عليه وقعدت وجعل يحدثنا ويمسح بريقه على موضع

---

١ – من الوافر . راجع التشوف ، ص ١٦١ .
٢ – من الطويل ، راجع التشوف ، ص ٢٤٢ .
٣ – في التشوف : أبو تميم عبد الواحد الأسود ؛ راجع ترجمته ، ص ٢٥٩ ، رقم ١١٧ .
٤ – في طرة من مخطوط ك : « بل قريب من جبل زرهون ، وضريحه مشهور بسلفات معروف بسيدي بو تميم بموضع يقال له حافة بو شريف .

البرص المرة بعد المرة فغلبني النوم وأنا جالس ثم انتبهت فوجدته مستندا يذكر ونظرت الى وجه أختي فاذا هو قد ذهب البرص منه . فأعلمتها . فقامت مسرورة بفضل الله تعالى . »

مَحَبَّتُهُمْ فَرْضٌ وَ رُؤْيَتُهُمْ هُدًى
وَلِلدِّينِ مِنْهُمْ أَلْسُنٌ وَقُلُوبُ (١)

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح الفقيه أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري السبتي (٢) . وقرأ عليه الشيخ أبو مدين بفاس . ولأبي الصبر هذا كتاب عرف فيه بالشيخ أبي مدين وذكر فيه فضله . وكانت أمه من الصالحات . كانت اذا غاب عنها حدثته بما جرى له في مغيبه . قال أبو علي الصواف (٣) ، رحمه الله : « سمعت الشيخ أبا مدين يقول : جاء أبو الصبر أيوب بصحفة كبيرة من عود من عمل الروم من سبتة الى منزل الشيخ أبي يعزى على رأسه . فقبلها منه أبو يعزى وكان يطعم فيها الزائرين . قلت : وبين سبتة وتاغية ، موضع أبي يعزى ، ثلاثة عشر يوما . »

قَطَعْتُ ٱلْأَرْضَ ذَا سَيْرٍ حَثِيثٍ ۞ كَلَمْعِ ٱلْبَرْقِ حُبًّا فِي ٱلتَّلَاقِي
وَقَالَ لِي ٱلْعَذُولُ وَقَدْ رَآنِي ۞ سَبُوقًا بِٱلْمُضَمَّرَةِ ٱلْعِتَاقِ
رَكِبْتَ عَلَى ٱلْبُرَاقِ فَقُلْتُ كَلَّا ۞ وَلَاكِنِّي رَكِبْتُ عَلَى ٱشْتِيَاقِي (٤)

---

١ – من الطويل .
٢ – التشوف ، ص ٤٣١ .
٣ – هو أبو علي حسن بن محمد بن الفتح الغافقي الصواف . راجع التشوف ، ص ٥٠٥ .
٤ – من الوافر . راجع التشوف ، ص ٣٢٦ .

ومن اخـوان الشيخ أبـي مديـن ، رضي الله عنه ، يحيى بن صالح (١) خديم الشيخ أبي يعـزى وكـان كثير الخـوف من الله تعالى . بكـى حتى سقطت عيناه من كثرة البكـاء ولـما عمي ضاعف أوراده واجتهد في عبادتـه ، نفـع الله بـه .

إِذَا صَحَّ مِنْكَ ٱلْـوَدُّ فَـٱلْكُلُّ هَيِّنٌ
وَكُلُّ ٱلَّذِي فَوْقَ ٱلتُّرَابِ تُـرَابُ (٢)

ومـن اخـوان الشيخ أبـي مـدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبـو محمد عبد الجليل بـن موسى بـن عبـد الجليل الأنصاري يعـرف بـالقصري (٣) كـان كثير البكاء ومن عباد الله الصالحين الملازمين للعبادة .

رِجَـالُ ٱللَّهِ قَـدْ سَعِدُوا وَفَـازُوا
وَنَـالُـوا فَضْـلَ رَحْمَتِـهِ وَحَـازُوا
رِجَالٌ طَلَّقُـوا ٱلـدُّنْيَا ثَـلَاثًـا
وَلَـوْ جَـازَ ٱلرُّجُـوعُ لَمَا ٱسْتَجَـازُوا
وَمَا ٱقْتَـزُّوا بِمَخْلُوقٍ وَلَكِـنْ
لَهُمْ بِـٱلْخَالِـقِ ٱلْأَحَدِ ٱعْتِـزَازُ

---

١ – التشوف ، ص ٣٦٦ .
٢ – من الطـويل .
٣ – التشوف ، ص ٤٣٢ .

دَعُوا (١) ٱلدُّنْيَا فَلَيْسَتْ لَهُمْ لِتَبْدُو
وَهَلْ تَخْفَى ٱلْحَقِيقَةُ وَٱلْمَجَازُ

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الشهير العالم المحدث الصالح الخطيب القاضي العدل ، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي ، الحافظ ، صاحب الأحكام الكبرى والصغرى في الحديث والعاقبة في التذكير الى غير ذلك من التواليف . كانت ولادته عام ستة عشر وخمسمائة و وفاته عام اثنين وثمانين وخمسمائة . وقبره ببجاية المحروسة خارج باب المرسى . وأول اجتماع به وقع له مع الشيخ الفقيه القاضي العدل الشهير أبي علي المسيلي صاحب التذكرة في أصول الدين وغيرها . وقبره يتبرك به خارج باب آمسيون من بجاية وذلك أنهما كانا أخوين في الله تعالى مصاحبين في العلم والدين والزهد واليقين ، واتباع سلف المؤمنين . فسمعا بالشيخ أبي مدين وأنه يأتي من العلم بفنون وأنه اطلع من أمر الله تعالى على سره المكنون ؛ فكانا يتعجبان ويبعدان ما عنه يسمعان . فاتفق رأيهما على الاجتماع معه والاطلاع على ما عنده فسارا اليه الى أحد مسجديه اللذين يجلس فيهما مع خواصه . فدخلا عليه فوجداه يفيض النور (٢) ويستخرج

---

١ – كذا في كل المخطوطات والصواب كما جاء في التشوف :

وما اعتزوا بمخلوق ولكن	لهم بالخالق الأحد اعتزاز
[أردت لحاقهم وعجزت عنهم	وحدت عن الاجازة اذ أجازوا
أ تطمع في اللحاق ولا نهوض	و تفرح بالرحيل ولا جهاز
وأنت أخوهم نسبا ولكن	طرازك فوقه ذاك الطراز]
دع الدعوى فلست لهم بند	وهل تخفى الحقيقة والمجاز

يرى القارىء أنه قد سقطت من كتاب أنس الفقير من الأبيات ما بين منعقفين . فصار البيت الأخير مختل المعنى والوزن . راجع التشوف ، ص ١٥٨ . من الوافر .

٢ – رب ، ف ، ق : الأمور ؛ وعلى الهامش : الأنوار ؛ ك : الأنوار . والأنسب للسجعة : النور .

الـدرر من قيعان البحـور . فلمـا فـرغ من كلامه سلما عليه وسلم عليهما . وما اجتمعا بـه قط ولا رآهما . فقال الشيخ أبـو مدين رضي الله عنـه : « أمـا هـذا فالفقيـه أبو محمـد عبد الحـق ، وأما هـذا فـالفقيـه أبـو علي المسيلي . » فقالا : « نعم . » وكان ذلك من كـراماتـه . ثـم قالا له : « بلغنا أنك لم تزد على سورة « تَبَـارَكَ ٱلَّـذِي بِيَـدِهِ ٱلْمُلْكُ » (١) . فقـال لهما : « نعـم ، كانت سورتي ، ولو تعديتها لاحتـرقت . » ثـم التفت اليهما وقال بنـزعـة صوفية : « بي قُـلْ وعلـي دُلْ فـأنا الكـل . » ثـم انفصلا عنـه وعلمـا ان لله تعالى مواهب لا يسعها المكاسب وان الفضل بيـد الله يؤتيه من يشاء . فواخاه (٢) أبو محمد عبد الحق ، رحمه الله ، و أقـر لـه بالسبق في الطريق . وكـان بعـد ذلك اذا دخـل على الشيخ أبي مديـن ورأى مـا أيـده الله بـه ظاهـرا وباطنا يجـده على حالة سنيـة لـم يجدها قبل ظهـوره في مجلسه ويقـول عند ذلك : « هـذا وارث على الحقيقـة . » هكـذا نقل محيي الدين الامام المحقق الصوفي أبـو عبد الله محمد الحاتمي المعـروف بابن العـربي ، صاحب كتاب مواقع النجـوم فـي التصوف وغيره من التـآليف . وتوفي محيي الدين هذا في حدود الأربعين وستمائـة ، أعـاد الله علينـا بركـة الجميع .

لَا تَحْمَدَنَّ آمْـرَأً حَتَّـى تُجَـرِّبَـهُ
وَلَا تَذُمَّنَّهُ مِـنْ غَيْـرِ تَجْـرِيبِ (٣)

ومن اخوان الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الشهير أبـو محمـد بن ينصارن المـاجـري (٤) الـذي بـآسفي . وشيخـه عبد الرزاق

---

١ — سورة الملك : ١ .
٢ — رب ، ف ، ق : فوافاه ؛ را ، كـ : فواخاه . واخاه لغة ضعيفة في آخـاه ، بمعنى اتخـذه أخـا له .
٣ — من البسيط .
٤ — التشوف ، ص ١٣ و ٢٣٦ .

الجزولي (١) و عبد الرزاق هذا رفيع القدر وقبره قرب الاسكندرية ويتبرك به وهو من كبار تلامذة الشيخ أبي مدين . ولازمه مدة طويلة . قيل للشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه : « ان عبد الرزاق يواصل سبعة أيام . » فقال : « دعوه ان كان كاذبا فعقوبته الجوع و ان كان صادقا فسينتفع به . » وأبو محمد هذا هو الذي تزوج جارية الشيخ أبي مدين . وذلك أن الشيخ أبا يعزى أخبره بأنه تهدى له جارية حبشية يكون له منها ولد . فان عاش يكون له شأن عظيم . فأهديت له ببجاية وتزايد (٢) له منها ولد سماه محمدا ثم اعتزل الشيخ عنها واغتم منها . فسألته تلامذته عن سبب اغتمامه . فقال : « هذه الجارية لم يبق لي فيها أرب ولو لا ان الشيخ أبا يعزى أخبرني بالولد ما قربتها . فان تركتها أثمت وان زوجتها لأحد خفت على الولد . » فقال عبد الرزاق الجزولي : « أنا أتزوجها وأربي الولد . » فقال له الشيخ أبو مدين : « نكاح الحبشية عند المصامدة عار . » فقال له : « ليس في نفسي شيء من ذلك . » فتزوجها عبد الرزاق وربى الولد وظهرت العجائب في الولد من قوة حفظه وظهور بركته ومات الولد بعد مدة نفع الله به وبأبيه .

تَـزَوَّدْ قَـرِينـاً مِـنْ فِعَالِكَ إِنَّمَـا
قَـرِينُ ٱلْفَتَى فِـي ٱلْقَبْرِ مَاكَـانَ يَفْعَلُ
أَلاَ إِنَّمَـا ٱلإِنْسَانُ ضَيْفٌ لِأَهْلِـهِ
يُقِيمُ قَلِيـلاً عِنْدَهُمْ ثُـمَّ يَـرْحَـلُ (٣)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو علي حسن بن محمد الغافقي الصواف . لازمه ثلاثين سنة ولم

---

١ – التشوف ، ص ٣٢٦ .
٢ – را ، ف ، ق ، ك : تزيد .
٣ – من الطويل . راجع التشوف ، ص ١٨٨ .

يفـارقه ، الا بالمـوت ، فـي العباد . وحـدث عنـه أخبارا ورأى له أسرارا و انتفـع على يديـه . و تحسر بعـد مـوتـه عليـه . و نسب كـل فضيلة ظهرت في تلامـذته اليـه . و سأورد شيئـا مما حدث عنه ان شاء الله .

بِـذِكْرِكُمْ يَـأْنَسُ ٱلْمُشْتَاقُ بَعْدَكُمُ
أُنْسَ ٱلْغَرِيبِ إِلَى ٱلْأَحْبَابِ وَٱلْـوَطَنِ
يُـدْرَى هَـوَاكَ وَ إِنْ أَخْفَيْتَهُ وَمَتَى
يَغْلِبْ عَلَى ٱلسِّرِّ شَيْءٌ بَانَ فِي ٱلْعَلَنِ (١)

ومـن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الفقيـه أبو عبد الله محمد بـن ابراهيم الأنصاري (٢) وهـو من كبار تلامذته و كثير الروايـة عنه . حـدث فقـال : « كنت ليـلا ببجـايـة برابطة الزيات مـع أبـي علي منصـور المليانـي مـن تلامـذة الشيخ ، رضي الله عنـه ، في ليلـة مقمـرة وقـد قـام كـل واحـد منا الى أوراده بالليل . فسمعت حسا كحس طائر طار بشدة . فرفعت بصري فـاذا بشخص ظاهر على البحـر يصلي . فكتمت ذلك عن أبي علي المليـاني ثـم قال لي أبـو علـي : « هـل تـرى ما أرى ؟ » فقلت لـه : « رأيته حـين انزعـج وسترت ذلك عنك . » فقـال لـي : « هـو فـلان الـذي يحضر معنا مجلس الشيخ أبـي مديـن ، رضي الله عنـه . »

يَـزِيدُ ٱشْتِيَاقِي كُلَّ مَا مَـرَّ ذِكْرُكُمْ
وَ أَهْجُـرُ ذِكْرَ ٱلْغَيْـرِ حِيـنَ يَـزِيـدُ
وَهَلْ أَنْتَ إِلاَّ فِـى ٱلْفُـؤَادِ وَإِنَّمَا
مَغِيبُكَ عَـنْ سَمْعِي عَلَـيَّ شَـدِيـدُ (٣)

---

١ — من البسيط .
٢ — التشوف ، ص ٥١٩ .
٣ — من الطـويل .

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو علي عمر الصباغ (١) وكان صاحب مكاشفة وهو الذي قال : « صليت المغرب مع الشيخ أبي مدين . فرأيت وأنا في الصلاة ثلاثا وأربعا من الحور العين يلعبن . فلما سلمنا من الصلاة قلت للشيخ أبي مدين ما رأيت فقال : و هل رأيتهن ؟ قلت : نعم . قال لي : أعد صلاتك فان المصلي يناجي ربه وأنت انما ناجيت الحور العين . » قال الشيخ أبو علي حسن الغافقي ، رحمه الله تعالى : « حدثني بهذه الحكاية شيخنا أبو مدين فقال : صليت مع الصباغ ، الى آخرها . »

إِنَّ شَفِيعِي إِلَيْكَ حُزْنِي ﴿﴾ وَدَمْعُ عَيْنِي وَحُسْنُ ظَنِّي
فَبِالَّذِي قَادَنِي ذَلِيلًا ﴿﴾ إِلَيْكَ إِلَّا عَفَوْتَ عَنِّي (٢)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو عمران موسى الحلاج (٣) . كان يحلج القطن بفاس . فلما شاعت عنه العجائب من المكاشفة والحديث بخفيات الأمور خرج خائفا على نفسه وفر من المغرب مشرقا و انتهى الى بجاية . فقصد الشيخ أبا مدين ، فسلم عليه فقال له الشيخ أبو مدين وهو يعرفه : « ما اسمك ؟ » فقال : « موسى . » فقال له الشيخ أبو مدين : « وأنا اسمي شعيب وقد أمنت . فان موسى ، عليه السلام ، لم يأمن حتى لقي شعيبا عليه السلام . » قال الشيخ أبو علي حسن الغافقي ، رحمه الله : « غاب موسى الحلاج عن أبي مدين مدة ثم قدم عليه فوجده في مجلس اقرائه فجلس . فلما فرغ الشيخ من اقرائه قام اليه موسى الحلاج فسلم عليه فقال له الشيخ أبو مدين : يا أبا عمران على من وجبت الضيافة ، على الزائر أم على المزور ؟ فسكت أبو

---

١ - التشوف ، ص ٣٢٥ .
٢ - من مخلع البسيط .
٣ - التشوف ، ص ٣٣٠ .

عمـران . فقال لـه الشيخ : علي الطعـام وعليك العسل . فقـال : نعـم . فـأمـر الشيخ أبـو مديـن بصحفـة فجاؤوا بهـا . فـأخـذها أبـو عمران وجعلهـا خارج البيت ثـم صلى ركعتين ثـم افتقدهـا فلـم يجـد شيئـا . فقال الشيخ أبـو مـدين ، رضي الله عنه : أعطني ثـوبك . فنـاوله اياه . فخـرج وغطى بـه الصحفـة . ثـم عـاد الى ركـن الـزاويـة فصلى ركعتين ثـم رجـع فخـرج وأدخل الصحفـة وهـي مملوءة عسلا أبيض . فـأكل الحاضرون . قـال الشيخ أبـو مـدين : وأكلنـا مـن ذلك العسل خمسة وعشرين يـوما ولـم ينقص ثـم خفت أن يكون لي معلوما فتصدقت بـه . »

رحمهـم الله ونفعنا ببركتهم بمنه وفضله وكـرمه .

تَـذَكَّرْتُ أَمْـرِي فَـانْفَـرَدْتُ بِغُرْبَتِي
فَصِرْتُ فَـرِيدًا فِـي الْبَـرِيَّـةِ أَوْحَـدَا
تَسَرْمَـدَ وَقْتِـي فِيكَ فَهْوَ مُسَرْمَـدٌ
وَ أَفْنَيْتَنِـي عَنِّـى فَصِرْتُ مُجَـرَّدَا (١)

ومـن أصحـاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبـو عبد الله محمـد بن علـي (٢) . و ممـا حـدث عنه قـال : « سمعت الشيخ أبا مدين يقـول : رأيت من واصل ستة أشهـر . ـ وقـال : وذكرت عنده العقبـات السبـع المذكورة في كتـاب منهـاج العابدين فقـال : رأيت مـن قطعهـا في السبعـين عاما ورأيت مـن قطعهـا في ساعـة واحـدة مثلما قطعهـا ابـراهيم بن أدهـم و جـاء التوفيق من الله تعالى . »

---

١ — من الطويل . راجـع التشوف ، ص ١٠٨ .

٢ — هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله الأنصاري السقطي . راجـع التشوف ، ص ٥٢١ .

عَجِبْتُ لِمَنْ يُصِرُّ عَلَى ٱلْمَعَاصِي ۞ وَيُنْكِرُ مَا يَقُولُ ٱلْأَوْلِيَاءُ
تُقَصِّرُ عَنْهُمُ وَتَخُوضُ فِيهِمْ ۞ فَلَا نُورٌ لَدَيْكَ وَلَا ضِيَاءُ (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح الشهير أبو مسعود بن عريف (٢) من جبال شلف ، بأرض تلمسان . وكان مجاب الدعوة مشهور البركة وقبره بجبال شلف يزار ويتبرك به . وهو شيخ والد جدي للأم يعقوب بن عمران البويوسفي . فانه ارتحل اليه في صغره فأدبه وهذبه وأحسن تربيته وقربه وانتفع على يده وأمره بالانصراف الى وطنه . فأقام به زاوية و وجد ببركته مكانة سنية . وبها توفي في عام سبعة عشر وسبعمائة . وكانت ولادته في حدود الثلاثين وستمائة . وكان يحدث الناس بما يرى من موضعه في تليك الى قسنطينة (٣) وذلك مسافة مرحلتين . و اشتهرت كراماته ولما بويع السلطان الشهير أمير المؤمنين أبو يحيى أبو بكر ابن الامراء الراشدين سنة احدى عشرة وسبعمائة بقسنطينة المحروسة وضع يده عليه في ذلك اليوم وقال له : « تطول مدتك ان شاء الله وتأمن من القتل . » وسماه المتوكل على الله . فكانت وفاة السلطان ، رحمه الله ، بعد ست وثلاثين سنة من مبايعته بعقب مرض يسير أصابه وتجديد توبته قبل نزول المرض به وذلك في شهر رجب سنة سبع وأربعين وسبعمائة . ولما دخل عليه عقب رؤيته هلال رجب المذكور قال : « لا اله الا الله ! دخل رجب ! » وكرر ذلك مرارا و أشار الى حضور أجله ونعيت اليه نفسه . ثم ركب وسار في

---

١ — من الوافر . راجع التشوف . ص ٩٤ .
٢ — ف : .. بن يوسف .
٣ — كـ : وكان يحدث الناس بما يرى من موضعه تلك الى قسنطنطينة .

الأسـواق وزار المـزارات و صار يتكلـم مـع النـاس (١) لأنـه كـان قبل ذلك قليل الظهور الى الناس . ففعل فعل المودع ولا أدري هـل سمع ذلك مـن الشيخ أو مـن غـيره من الفضلاء . وكـان يقتحـم الدخـول في القتال ولا يحـذر مـن ضارب ويقـول : « سيدي يعقـوب وعدني بالمـوت علـى سريـر العـافية . » و مـا زال السلطـان ، رحمه الله ، يكـرر ذلك . وذكره يـومـا لأطبـائه حـين اطلعـوا على جـراحـة فاحشة في جسده وكـان ، قـدس الله روحـه ، يكتب لجدي بعد وفاة والده يرغبه في الدعاء لـه عند قبـره وكتابـه عندي الآن . ودفـع الحـاجب الرئيس أبـو عبد الرحمن ابـن عمـر لبعض تـلامذة الشيـخ ألف دينـار دراهـم في اليـوم الـذي بـويـع فيه السلطـان ، رحمه الله ، وقال لـه : « أعط هـذا السيد يعقوب و لا تدفعهـا له الا بعـد سفـره ووصوله الى زاويته . » فخـرج الشيـخ مسافـرا . فلمـا لحقه التلميذ بالمال وصار مع الناس نحـو الميـل ولـم يعلمـه واذا بالشيخ حول وجهه وقال : « مـا هـذا الشوك الذي معنـا في الطريـق ؟ » فقـالوا لـه : « ومـا الذي معنـا ؟ » فـوقف وهـو يقـول : « مـا هـذا الشـوك ؟ » ويكـرره . فـأعلمـه بالمـال . فـأمره بـرده الى ابـن عمر وأنـه لايتعـدى مـن ذلك المكـان حتى يصل اليـه . فـرجـع التلميـذ بعـد رد المـال فقال : « بسم الله ! قـد فعلت ما أمرتني بـه . » فتحـرك الشيخ وقال : « الطريق الآن نقـي : » وسقط له ابريق الـوضوء مـن يـده وتكسر . فوقف في ذلك ثلاثـة أيـام باكيا مستغفرا .

وحدث الشيخ عـن شيخه أبي مسعـود الحكاية المشهورة وهي أنه قـال : « نمت ليلـة قريبـا مـن شيخنا أبـي مسعود في خلـوته . فسمعت

---

١ – كذا في كـ ؛ وفي را : وكف يد مـانـع مـن يهدي اليه ؛ وفي ف : وكف يد مانع من يهـد اليه ؛ وفي ق : وكف دمانع من يهد اليه .

كل شعرة تذكر الله تعالى بلسان فصيح . » وبه يتصل سند جدي للأم يوسف بن يعقوب البويوسفي شُهِرَ الملاري (١) الى الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، بمشيخته عن والده عن أبي مسعود هذا . وأبو مسعود عن أبي مدين . فكان بينه وبين أبي مدين رجلان . فسمعت ذلك عن جدي للأم سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وقال : « هذه بركة أشياخنا . » وسرد السند المستند اليه وهو : أبو مدين عن أبي الحسن ابن حرزهم عن القاضي أبي بكر ابن العربي ؛ وتوفي ابن العربي [بمغيلة ودفن] (٢) بظاهر فاس عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة وقبره بين المدينتين ، فاس القديم وفاس الجديد . وقد وقفت على قبره . ولزيارته بركات . ـ عن أبي حامد الغزالي ، وتوفي بطوس في عام خمسة وخمسمائة ؛ و كانت ولادته سنة خمسين وأربعمائة . ولما صلى الصبح طلب كفنه ومسح به على وجهه وقال : « مرحبا بالدخول على الملك . » واشتغل بالذكر والاستغفار الى أن توفي قبل طلوع شمس ذلك اليوم وقال : « لا يصلي علي أحد حتى يأتي رجل لايعرف فيصلي علي . » فوضع على شفير قبره وانتظر الناس به . فأقبل رجل ، عليه عباءة ، وتقدم وصلى بالقوم عليه . هكذا ذكره السمعاني في كتابه المعروف بمنتخب الذيل (٣) .

ووقفت بخارج آزمور من بلاد المغرب على قبر أبي شعيب آزمور المعروف بأيوب السارية . (٤) ومعنى هذا أنه كان اذا وقف في صلاة النافلة غاب وهو منتصب كالسارية . فاذا أقيمت الصلاة ، جاءه المؤذن وصاح في أذنيه صيحة تسمع من خارج المسجد فيستيقظ من غيبته عن الناس

---

١ – را : شهد الملار الى ..؛ رب . شهر الملار الى .؛ ف : شهد الملا الي ..؛ ق : شهد الملار ؛ في ك : بياض .
٢ – زيد ما بين منعقفين عن ك .
٣ – راجع التشوف ، ص ٦ و ٧ .
٤ – التشوف ، ص ١٦٦ .

ويخفف في صلاته ويدنو مع المصلين . فقال لي الشيخ الصالح الفقيه الواعظ أبو القاسم الزموري في هذا الرجل هو الذي صلى على الغزالي . فطابق لي ما كان عندي مما وقفت عليه في منتخب الذيل . وأخذ الغزالي ، رحمه الله ، عن امام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن أبي محمد ابن يوسف الجويني امام الائمة على الاطلاق . وكان هذا الامام قد جلس للتدريس في مكان أبيه وهو ابن عشرين سنة . وكان هاجر اليه الغزالي مع شبان من طوس و انتفع عليه ، نفع الله بهم . وتوفي في عام ثمانية وسبعين وأربعمائة . وكسرت المحابر والأقلام في ذلك اليوم مبالغة أنه لم يبق من يؤخذ عليه العلم . وهو من أصحاب أبي القاسم القشيري ، رحمه الله . وأخذ أبو المعالي عن أبي طالب المكي عن أبي القاسم الجنيد عن سري السقطي عن معروف الكرخي و هو الذي قيل فيه لأحمد بن حنبل : « ان معروفا قليل العلم . » فقال للقائل : « وهل يحتاج العلم الا لما وصل اليه معروف . » وأخذ معروف عن داود الطائي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري . وكانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي ، صلى الله عليه وسلم . فاذا اشتغلت عنه بالخدمة وبكى عليها أعطته أم سلمة، رضي الله عنها ، ثديها يمص فيه تشغله عن أمه . فظهرت العجائب عن لسانه من بركة أم سلمة . وأخذ الحسن البصري عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ودعا له وأخذ علي عن سيد البشر ، صلى الله عليه وسلم . هكذا سمعت هذا السند من جدي للأم يوسف بن يعقوب البويوسفي . وكانت ولادته في عام ثمانين وستمائة . و وفاته في عام أربعة وستين وسبعمائة . وتوفي و هو جالس في مرضه يمسح بيده اليمنى في التيمم لصلاة العصر . ودفن بزاويته بجنب أبيه وحضر جنازته من لايحصى عدده . وأعلمهم بسنة موته قبل ذلك بتدريج في التعريف مرة بعد أخرى وتوفيت زوجته جدتي بعده بشهرين . و أقام معها في الزوجية سبعين سنة بعشرة قويمة وهداية مستقيمة واعانة على الطاعة عظيمة . وكانت تربيته على يد والده . وحدث عنه قال : « أمرني والدي

في ابتداء أمـري بالاعتكاف في شهر رمضان وناولني في الليلة الأولى ثلاثـين تمرة و في الليلة الثانية تسعا وعشرين تمرة . ثـم ما زال ينقص لي واحـدة في كل ليلة وما رأيت تشوفا لشيء في ذلك الشهر . » وأقـام نحـوا مـن خمسين سنة لايطلع عليه الفجـر الا في المسجـد أبـدا الا في الضروريـات البدنية . وكانت صفته التـي داوم عليهـا ، وهي أسهـل الأشياء عليـه ، وعـرفها منه الخاصة و العـامة ، افشاء السلام واطعـام الطعـام ، والصلاة بالليل والناس نيـام . و وضع الله لـه القبـول عند الأمـراء الراشدين ، رضي الله عنهم ، وأعانهم على مايـرضاه منهـم ، وعنـد ولاتهم في قضـاء الحاجات وقبـول الشفاعات وكف المدعى عليهم بالجنايات فكـان يـدخـل بذلك على المكروبين المسرات . حضر يوما عند الخليفة أمير المؤمنين المتوكـل على رب العالمـين أبي العباس ابن الأمـراء الـراشدين ، أعلى الله مقامـه ، وأطال في العـز دوامـه ، بالجامـع الأعظم من قصبتهم السعيدة بقسنطينة المحروسة بعد صلاة الجمعة وطلبه في حوائج قضاها كلهـا الا واحـدة فـي تسريح مسجـون تردد السلطان فيه و عسر عليه اطلاقه . فقال لـه الشيخ . بعد أن حبسه بيده مـن صدره ، قابضا على الثـوب من هناك : « والله ان لم تطلقـه لا خـرجت عنك الا غـير طيب . » فـأبى مـن ذلك أيـده الله أنـه لايطلقـه . فانصرف الشيخ بانزعاج و بغير سلام . فنظر السلطان في الأرض . ثـم حـركه اعتقاده و فضله وتواضعه وقـام وتبعـه وأمـر أخـاه الأعـز عليـه أن يبادر اليه ليوقفه . ففعل ، ورده اليه بلطافـة قـول وليانـة فعل . واجتمعا فـي الطريق ، فقال لـه السلطـان ، نصره الله : « لا تأخـذ علينـا يـا سيدي ونحـن أولادك . » فقـال لـه الشيخ بعـد أن تبسم : « غيـار الـوالد علي الولد بالظاهـر لا بالباطن . » ثـم قضى له الحاجـة التي توقف فيها وأخـرى معها وانصرف . وسمعته ، نصره الله وأبقاه يقول ، في مجلسه الأشرف ، بحضرتهم العليـة تونس المحروسة : « ما رأيت بعـد سيدي أحـدا . » و هـم ، نصرهـم الله ، الحجـة في مثل ذلك . و حدث عنه الفقيه ابن رضوان متعجبا غير ما مرة في مجالس عدة قال : « فلما قضينـا

زيـارتنا وأحضر لنا الطعـام قـرب لي الطعـام الـذي اشتهيته وحـدي وهـو يتبسم و رأيت في ذلك ما لاكنت أظن أني أقف عليـه . »

وحدث عنه ابـن أبي مـديـن في غـير ما مـوطـن قـال : « أمـرنـا السلطـان بالجلوس في فرجويـة بقيـة عامنا . فشق ذلك علينـا . فركبت الى الـزاويـة وأعلمت سيدي يوسف بما كتب بـه الينـا السلطـان و مـا نحـن فيه من الكرب بسببه . فـأطرق ساعـة ثـم رفـع راسـه وقـال : « تنصرفون ان شاء الله تعالى . » فقلت : « متى ذلك ؟ » وانصرفنـا بعـد أيـام يسـيرة بكتاب آخـر وصلنـا و تعجبنـا مـن ذلك . » وكـان كثـير العطيـة . فـرق مـرة ، في مرضه ، على المحتاجين ، مـن أقاربـه ومعارفـه ألف دينار دراهـم جديـدة ، وثلاثمائـة دينار ذهبا . جعل ذلك أكـداسـا تحت فراشه و لا يخـرج الزائـر المحتاج حتى يناوله بقدر حالـه . وقسم سائر كسبه على ورثته . وليس ذلك في مرض مـوتـه . ولمـا كـان يـوم افاقته قال لأهله : « لـم يبق لي الا ثـوب عنقي . » وحمد الله على ذلك . وما أخذه الـوارث لم يسترجعه منه . وكـان ببركة الشيخ أبي مدين و ظهور عنايته من انتسب اليه تكـرمه العلماء و الصلحاء والسلاطـين . ما يكتب اليه أحـد مـن الأمـراء الراشدين الا ويخصصه بالسيادة . وكتب مرة لأمـير منهـم في تسريح مسجـون ، فسرح كل من في السجن بسبب ذلك . وكـان لـه تلاميذ مباركة واخوان مباركون . فمن تلامذة الشيخ الفقيـه المبـارك الصالح الولي أبو عبد الله محمد بن أبي محمد عبد الله الصفار ، المدفـون عندنا في المسجـد الذي كان يؤم فيـه ، داخـل بـاب القنطرة من قسنطينة . أدركته صغيرا وتبركت بـه . ورأيت والده صفـارا . وكـانت لأبي عبد الله البركـة التامـة والكـرامة العامـة واختصه والدي ، رحمه الله ، لبناتـه ، يعلمهن القـرآن ولـم تفـارقـه احـداهن حتى ختمت وكررت ثلاث مرات . وقرأت عليه الرسالة وانتفـع بها والدي ، رحمه الله ، كثـيرا فـي مقابلـة الكتب ونحـوها . وقالت لي احدى اخـواتي : « ما رأيتـه رفـع بصره يوما قط . و مـا سمعنا منه كلمة في غـير التعليم . واذا قربنا لـه طعاما ما يفطر

عليه ، تارة يقبله و تارة يرده بيده . » و كان يحدث عن جدي للأم ويكرر ذلك دائما ، أنه خرج لزيارته من باب القنطرة ، فناداه من أعالي الرمال التي هناك ، وجدي في طريقه . فلما بلغه في اليوم التالي بملازة وجده تبعد عن الدار ، جالسا في الطريق وقال له : « من حين ناديتني وأنا ننتظرك . » ولما قدم والدي ، رحمه الله ، من الحجاز خرج الى لقائه وقال لبعض الفقراء . « غرضي أن ينزل الخطيب عند بنت الشيخ . » فانه كانت لوالدي زوجة أخرى في مكان آخر . فكان يتبعه ويرمقه حتى رآه عدل الى دار والدتي. قال لمن معه : « الآن طابت نفسي. » وانصرف. فانظر ، وفقك الله ، رعي هذه الحقوق واستعمال الخاطر فيها . وكان يسعى في حوائج الناس ويختلف الى باب السلطان في ذلك . وقال له الحاجب يوما : « أكثرت من هذا فلا تعد ! » فسكت عنه ، فخرج فلقيته امرأة وكلمته أن يرجع . فرجع في حاجتها الى الحاجب . فأعلمه ، فقضى حاجته وقال له : « يا سيدي لا تتأخر عني في حاجة . » وتبين له أن لا فرق عنده بين الحاجة التي تقضى والتي لم تقض وكان قد قدمه جدي للأم ، رحمه الله ، على تلامذته بقسنطينة . وصدقت فيه فراسته وظهرت عليه عنايته . وتوفي ، رحمه الله ، على أفضل حالة من الطاعة و العبادة في عام تسعة وأربعين وسبعمائة . و قبره يزار ويتبرك به .

ومن تلامذته والدي ، رحمه الله ، الخطيب حسن ابن الخطيب علي بين اللمعة (١) . صافحه وعاهده وسلك طريقته وساعده وقصد الله تعالى في مصاهرته ، واعتضد بقربه ومواصلته ، وحدث متعجبا أنه لما انتهب في ركب الحجاز حين قطعت عليهم لصوص الأعراب لم يسلم له الا المفرش الذي دس فيه شاشية الشيخ مربوطة مع نفقة صالحة حدد بها رحلته . و كان والدي ، رحمه الله ، يستعين بعارية كتبه في تدريسه للعلم

---

١ — را : ... ص (؟) [بياض] ؛ رب : علي (؟) اللمعة ؛ ف : علي بن بين (كذا) اللمعة ؛ ق : علي بن بين اللمعة ؛ ك : علي بن [بياض] .

ويقاسمه فيما يترتب له على ذلك من حصول الثواب ونفي الاثـم . و كـانـا مسرورين معا بمواصلتهما وقليل أن تقـع مصاهرة في الصفاء كمصاهرتهما . ومـا زال والـدي ، رحمـه الله ، حافظـا على عهـده ، مشغـولا بطلب العلم وتدريسه ببلده مقتديـا بسمته بطريقة أبيـه وجـده حتى لقي الله تعالى بوسيلة العلـم وروايتـه وسنده . وكـانت ولادتـه في عام أربعة وتسعـين وستمـائـة ووفـاتـه في عـام خمسـين وسبعمائـة وهـو عـام الـوبـاء العظيـم العـام وكـان ، في صحته ، أعـد لنفسه جميـع مايحتاج اليـه بعد المـوت من كفن ونعش وتعيين نفقـة وغير ذلك . ولـه في آدابـه الشريفـة وأحاديثـه السنيـة ونكته السنيـة وأحكـامه العلمية تـأليف استحسنه من وقف عليه من أهل العلـم . وكان ممـا أوصى بـه أن تـرد البغلة التي أعطيت لـه أيـام السلطـان أبي الحسن المريني ليركبهـا . فـردت على معطيها منه ، بعـد موتـه ، عملا على انفـاذ وصيتـه . ومما استحسن منـه جماعة مـن الفقهـاء أنـه لمـا قطـع للشيخ الفقيـه العالـم المحقق الشهـير أبـي علـي بن الحسين اللجائي ، شارح المعالم الدينية مُـرَتَّبـه بسبب ما أذكره ، وذلك ببجـايـة ، بعث اليه والدي كتابا فيه أنـه « قطـع مرتبك ساءنـي ذلك و انـي التزمت أداءه على قـدره مـن مالي في كـل شهـر . » فكـان يبعث اليه ذلك وكـان أحب أفعـاله اليه صدقة السر . وكـان يتحدث بفعلة فعلهـا والده ، مـا أحسن القصد فيها ! (١) وهـي أن والـده ملكـه جميـع ربعـه الا دارا معتبـرة أنفـذهـا لنفسـه ، فلمـا قـرب أجله دفعهـا الى النداء وأمـر بانفـاذ بيعها فعجب والدي من ذلك بسبب أنـه لاحـاجـة الى بيعهـا . ففهـم عنه وقـال لـه : « أبقيت لك عـددا مـن الدور والجنـات والأرضين وغير ذلك مما تعلـم ، ومـا أبقيت لنفسي الا دارا واحـدة أريـد

---

١ — را ، كـ : مما أحسن القصد فيهـا .

أن ارتحل بها عنكم ، فلم تهن عليكم (١) ! » فقال له : « حاشا لله وانما توقفت لجهلي بهذا السبب . » فبيعت الدار بثمن معتبر وأوصى أن يتصدق بها على قبره يوم موته . ففعل وذلك سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة و كانت ولادته بعد أربعة وأربعين وستمائة وتردد في خطة الخطابة مدة تقرب من ستين سنة . هكذا أخبرني بعض الفضلاء ، رحم الله الجميع بفضله .

و من اخوان جدي للأم ، رحمه الله ، شيخ المريدين ، الشيخ الفقير الصالح السالك العارف المبارك أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف الأنصاري الأندلسي ، السرّاج ببلدنا . كان كثير الزيارة له بملازمة وحريصا على القيام بحوائجه . وكان اذا سمع بقدومه يأتي الى منزل نزوله فيتفقد سرجه هل يحتاج الى اصلاح أولا . واذا احتاجت رقعها بيده . و كان والدي ، رحمه الله ، يستحسن منه نباهة (٢) أخوته . وكان هذا الشيخ أبو الحسن علي الأندلسي من الأتقياء الأصفياء وليس على فضله مختلف . وله سند الشيخ أبي مدين رضي الله عنه . وكان له معرفة بالتربية وألمعية وأخذ في الأنوار الألمعية وكان له فهم و سلوك في معاني نظم السلوك وهي القصيدة التي منها :

لَأَنْتَ مُنَى قَلْبِي وَغَايَةُ مَطْلَبِي
وَأَقْصَى مُرَادِي وَٱخْتِيَارِي وَخِبْرَتِي (٣)

وهي للأمام أبي القاسم عمر بن علي السعدي المعروف بابن الفارض وكانت ولادة ابن الفارض سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة ، وبها توفي سنة اثنتين وثلاثين وستمائة . وجاور بمكة عشرين سنة و مات على

---

١ – ف ، : فلم لا تهن عليكم ؛ ق : فَلِمَ لا تهن عليكم .
٢ – ف ، ق : نهاية
٣ – من الطويل .

أفضل حال فكانت للأندلسي بها دراية . وكان حديثه في الطريقة نهاية . وله محبة في نظم الشيخ الصالح الزاهد العابد الولي المحقق المكاشف الشهير أبي الحسن علي الششتري ، رحمه الله . وكانت وفاة الششتري بدمياط سنة ثمان وستين وستمائة . وهو من معارف جدي للأم . وتوفي شيخه أبو محمد عبد الحق ابن سبعين بمكة سنة تسع وستين وستمائة . وظهرت للأندلسي الفراسة والكرامة . وكانت له عند الخواص مكانة وكرامة . وتوفي ، رحمه الله ، بقسنطينة في حدود ستة وأربعين وسبعمائة و دفن بخارجها في وجه الكدية وقبره هناك معروف عند الأفراد من الناس وقد أخفاه الله تعالى حيا وميتا كما هي عادته في كثير من أوليائه .

ومن اخوان جدي للأم ، رحمه الله تعالى ، وأقربهم اليه الشيخ الصالح الحاج المبارك الفقيه السالك أبو هادي مصباح بن سعيد الصنهاجي والعامة تقول له عبد الهادي واسمه في البادية يشّو . قد يقال انه من المغرب . و أخبرني من يقبل قوله من الشيوخ أنه من عرب برقة وارتحل الى المغرب . والشهرة أنه من العرب وبلسانهم كان يتكلم . وارتحل الى المشرق . وجاور بمكة والمدينة مدة وكان له بها مجاهدة وعبادة . و انتقل الى بلاد افريقية بعد أن هم الاقامة في برقة وفي طرابلس بضم الباء واللام . وتردد هناك وتبعته بافريقية التلامذة . وظهرت بركته . وكان معظما عند السلطان و عامة الناس ، وكانت بينه وبين الفقهاء منافرة . وله مجلس معروف مع فقهاء تلمسان وبخهم هو وزجرهم السلطان عنه . وأراد قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد ابن عبد السلام الهواري التونسي شارح ابن الحاجب توبيخه لنزوله بجامع الزيتونة من تونس [ورقصه] (١) بتلامذته في صحن الجامع ولغط بما يفعل ثم كف لسر رآه من أحوال الفقراء . وكان اذا رآه والدي ،

---

١ — الزيادة بين منعقفين عن ك .

رحمه الله ، سأله عن حاله وقرر له محبته فيه وباسطه وسأله عن حال والدتي يقول له : « كيف هي بنت الشيخ ، ما زالت فقيرة ؟ أم رجعت فقيهة ؟ » فيجيبه أنها على الوجه الذي يريده ، ويضاحكه . وكان يحفظ جملة من مسائل الفقه وبعض غرائبه . وكان يؤول ما يسمع من المسائل العلمية الى معنى التصوف بالوجه المستحسن . وكان كثير الصلاة جدا يتكلم مع الزائر ، ثم يركع ركعتين ثم يعود الى الكلام تارة وتارة . وكان كثير الذكر ، وله أوراد مقررة . وكان لتلامذته أوقات من الذكر جماعة بعد أخرى . وكان ينفرد عنهم في أكثر الأوقات . وكان قليل الأكل . وكان له رأي نافذ في تدبير الدنيا ولذلك كانت القواد تستشيره . وكان أرفع ثيابه برنسة ويستر جسده بما تيسر . وأعطى مرة ثيابه التي عليه لرجل و تستر بما استعار ، حتى غسل له طرف من جلال فرس ولبسه . وكانت له في السفر راحلة تشبه راحلة القواد من قيطون و خباء وآلة طبخ وكلاب صيد . و كان لايركب الا جياد الخيل . وتلوثت الألسن فيه في حياته واتفقت على فضله بعد مماته . أخبرنا شيخنا الفقيه القاضي الشهير المحدث المرحوم أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس ، وتوفي سنة سبع وثمانين وسبعمائة و سنه يقرب من تسعين سنة ، أنه لم يعتقده الا بعد أن لقي أخيارا بالحرم الشريف تعرف منهم مجاهدته هنالك وعبادته وذلك بعد موته . وقال لي أيضا : « رأيت مرة ما أخبرك به . وذلك أن السلطان أبا الحسن المريني أراد أن يبني مدرسة بقسنطينة فتحدث في شراء دار . فقيل له : ما ثم أليق من دار اشتراها أبو هادي . وكان قريب العهد من شرائها ، قال : وكلفني السلطان أن أتحدث معه في أن يوليها له بأي ثمن شاء . ـ قال : فدخلت على المحلة بسبب الكلام فيها . فأنساني الله ذلك واشتغل السلطان ولم يكرر علي في أمرها . ورأيت أن ذلك من بركته . » ولما وصل الخبر بنزول السلطان أبي الحسن المريني متوجها الى بلاد افريقية خرج الشيخ أبو هادي

مسافرا من قسنطينة ، فبات عند جدي للأم رحمه الله ، بزاويته بملارة . فبعد فراغهما من وظيفة صباح تلك الليلة قال الشيخ أبو هادي : « أريد أن تتحرك معي الى هذا السلطان ونتعاون في الكلام معه ليرجع عن هذه البلاد . » فسكت عنه . فكرر عليه الكلام وقال له في أثنائه : « لعلك خفت . » فقال له : « والله ما خفت ، لكن المانع الأعظم عندي أن يقول لنا : لا ، فلا فائدة في الكلام . » فقال له أبو هادي : « اذا قال لنا : لا ، نقول له نحن : لا . » ورفع صوته بذلك ثم قال له : « سلمت لك في الجلوس ولا تنسنا بباطنك وأعطني سرجك نركب بها . » فأخذها وانصرف وقدم على السلطان أبي الحسن ودخل عليه فقال له : « ما حاجتك ؟ » فقال له : « حاجتي أن ترجع وتترك البلاد لأهلها . » فقال له : « هذا لايمكن ، فاطلب غير ذلك . » وتلطف له السلطان حتى رأى أنه لا طلب له الا هذا أعرض عنه وانفصل المجلس وكل واحد منهما غير طيب بما وقع . و عرّض السلطان فيه بالقول بعد انصرافه وقال : « هذا أحمق . مثلي يصد وطريقتي كذا ، وشأني كذا ولي من القوة كذا . » ورجع الشيخ أبو هادي الى قسنطينة وصرف أكثر أتباعه [وتحمل في نفسه] (١) ولازم خلوته ولغط كثير من الناس أنه متوجه الى الله تعالى في السلطان المذكور . و كان من عاقبة السلطان بافريقية ماكان من الفساد وذلك بعد موت الشيخ أبي هادي بأشهر . وكان بعض الصالحين يقول : « صدقت « لا »من الجانبين » .

ومن أشياخ الشيخ أبي هادي عبد المؤمن أبو لقمان من جهة مراكش من اخوان طائفة أبي محمد صالح وكانت لعبد المؤمن هذا أحوال أخبرني بها بعض فقراء المصامدة أن له معرفة تامة بكتاب البوني في أسرار الأسماء ، وسمع عنه الفقهاء بمراكش أشياء أنكروها ، فأحضروه

١ — را : وتحصل في نفسه ؛ كـ : سقط ما بين منعقفين .

يـوما للسؤال والبحث عـن سبب مـا يصدر عنه من الأحـوال ، فقال لهم : « أنـا أعـرفكم بسبب ذلك . أنا مـع ربي بالباطن وأنتم معه بالظـاهـر . » فتركـوه وسلموا لـه وكـان معاصرا مع الشيخ أبي زكريـاء يحيى بن أبي [عمر بـن] (١) عبد العزيز الحاجي . وكـان كـل واحـد منهما غـير طيب بصاحبه ولاحاجة لي في استيفاء هذا .

وكان الشيخ أبـو هـادي يتردد في بلاد أفريقيـة . و أكثـر استقراره بقسنطينة وحوزهـا . ولـه نوادر في طرف الكلام ويباسط ببعض الكلمات المضحكة . وكـان يقبل عطـاء الأمـراء وجوائز العمال ويطلب ذلك ويوسع بـه على المحتاجين من تلامذتـه . و منـه أقـام زاويـة ببلاد افريقيـة وله في ذلك مستند في الشرع معـروف و شاركه في الأجـر مـن أعانه عليه مـن الأمـراء الراشدين ، رضي الله عنهم . وكـان ، رحمه الله ، موقـرا لجدي لـلأم في أخـوته وكثـير المحافظـة على محبتـه . وضع يده عليـه يومـا بمحضر الناس وتلامذته وقـال لهـم : « هـذا أحد أشياخي . » وقال الشيخ لتلامذته أيضا : « من عاهدني فليجدد عهـده مـع أبي هـادي . » ومـا كان بينهما افتقـار الى الاستئذان في أخذ ما يحتاج أحدهمـا من حوائج الآخر . وما زالت بينهما المداولة في ذلك . وكان كثير الزيارة له بملارة . وحدث جدي لمن سمعته منه قال : « زارني أبـو هـادي مرة فبات عندي و اعتزلنا عـن الناس في المسجد بالليل ، وليس معنا ثالث ، والباب مغلق علينـا فشاهدنا في احيائنا ليلتنـا ، والله ، أحـوالا عجيبة وأمـورا غريبة ، لاينبغي التحدث بهـا . » وكان يقـول : « ينبغـي أن يعتقد . » وكـان كثير الترحـم عليه . تـوفي ، رحمه الله ، بقسنطينـة بعقب مرض أصابه عالجه منه الأطباء سنة ثمـان وأربعين وسبعمائة . ودفن بالزاوية المعروفة باسمه . ورفع كثير من متروكـه لبيت المـال أيـام المريني لأنه لـم يظهر له وارث . و كان أشهد قبل مـوته أن كل مايتركـه صدقة لطلبـة العلـم والمنقطعـين للعبـادة .

---

١ — زيد ما بين منعقفين عن ف ؛ والصواب : عمرو بن عبد العزيز .

واشهاده بذلك يدل على أنه لا وارث لـه . و دفـن بعده بجنبه امام الفريضة بـه و أحـد تلامذتـه ومـن ظهر بعده باسمه الشيخ المبارك الصالح العاقل التالي للقـرآن أبـو عبد الله المغربي سنة تسع وخمسين وسبعمائة .

ومن أكابر أصحاب جـدي لـلأم ، رحمـه الله ، وعليـه أقتصر لأن الغرض الاشارة إلى انتشار بركـة الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنـه ، و على تلامـذته وعلى السالكين سبيل هـدايته ، وظهـور بركته عليهـم وعنايته ، الشيخ الامام العالـم المحقـق المـدرس المفتي الصالح الشهـير قاضي الجماعة ببجايـة أبـو عبد الله محمد بـن يحيى الباهلي المسفـر ، شهير الـذكر رفيع القدر ، رقيق القلب ، غـزير الدمع . لقي الشيخ الفقيه الشهير أبا الحسن الصغيّر المغربي الذي ينسب اليه شرح المدونة . وتحدث معه في الفقه ، و رد عليه كلمة ملحـونة . فلما فارقـه أبـو الحسن قـال لأصحابـه : « بمَ يـدرك هـذا ؟ » فقـالوا : « بمعرفـة كتاب الفصيـح لثعلب . » قالـوا : فحفظـه في ليلة واحـدة . وهكذا كانت همم الرجـال . وكان للمسفـر ببجـايـة مجلس للعلم معروف باجتماع الفقهـاء والفضلاء والصلحـاء وهما معا من أصحاب الشيخ الصالح العالـم الشهير أبي علي ناصر الديـن منصور بن أحمد المشدالي . وتوفي ناصر الدين ببجايـة فـي صفر عام واحد وثلاثين وسبعمائة وسنه لحق المـائة . حـدث جـدي لـلأم غـير ما مـرة قـال : «كلفني السلطـان أمـير المـؤمنين أبو يحيى أبـو بكـر أن آخـذ في الصلح بينه وبـين أبي حمو ، صاحب تلمسان . فترددت في ذلك حتى أشاور ناصر الديـن فـاجتمعت بـه . فعنـد مـا رآنـي قـال لي من غير أن أكلمه : « لا خـير في كثـير من نجـواهـم الا من أمر بصدقـة أو معـروف أو اصلاح بـين الناس . » وسمعته أيضا يقـول : « كان عندي رجل من الصلحاء الأخفياء البلهاء . فقال لـي نـاصر الدين : سمعت أن عندك رجـلايخدمك ، شـأنه كـذا وكذا . فقلت لـه : هـو على خير عظيم ، لكنه يفر مـن الناس . فقـال لي : بحـق ما بيننا من الأخـوة الا وجهت وراءه . فبعثت اليه فحضر وخمـل ثـوبه وانـزوى في نفسه منقبضا فقلت لـه :

ابسط نفسك ! فتبسم ثم قال له ناصر الدين : ادع لي . فقال له الرجل : اسأل الله ان ينفعنا بك . فقال ناصر الدين : آمين . وكررها وهو يبكي . » و توفي المسفر في سنة أربع وأربعين وسبعمائة وله املاء عجيب على بعض مختصر الامام أبي عمرو بن الحاجب في الفقه . وله القصيدة الطويلة البديعة الجليلة التي سماها نظم فرائد جواهر في معجزات سيد الأوائل والأواخر ، صلى الله عليه وسلم ، ومطلعها :

تَبَدَّتْ فَغَابَتْ وَٱخْتَفَتْ فَتَجَلَّت

فَشَاهَدتُّهَا حَالَيْ حُضُورِي وَ غَيْبَتِي (١)

وله شرح على أسماء الله الحسنى ، وله كلام عجيب في التصوف ؛ وله تقاييد في أنواع فنون العلم ؛ وله شعر فائق . وخط رائق . وكان من فصحاء الفقهاء في جوابه في الفتيا . وكان ، على مكانته العلية وسيادته السنية ، يتولى قضاء حوائجه من السوق بيده . وكان لعلمه وأمانته ، وفصاحته و ديانته يتوجه في الرسائل السلطانية . وكان كثير التواضع حسن الملاقاة . وهو على الجملة ممن يحصل الفقر بلقائه وصحبته ، وينال الخير بدعائه وبركته ، رحمه الله ونفع به . عاشر جدي للأم ورافقه وصافحه في الله تعالى وعانقه وزار معه الشيخ أبا مدين ، رضي الله عنه ، في توجههما لسعي المصالح بين المسلمين و ذلك في عشرة الثلاثين وسبعمائة . وكانت بينهما مكاتبة سنية محتوية على معان علية . وزاره بزاويته بملارة وأتحفه جدي مرة بمائة دينار ذهبا . ذكر لي غير واحد أن المسفر تعجب من سماح الشيخ له بهذا القدر . ومعاني كتبه له تدل على فضله ومحبته في أهل الطريق وقوة نبله . فمنها كتاب وقفت عليه بخطه رحمه الله ، نصه :

---

١ — من الطويل .

أوله : بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد
و على آلـه وصحبه وسلم تسليمـا

زَارَتْ وَقَـدْ فَعَلَ ٱلنَّـوَى أَفْعَـالَـهُ
صَبًّـا رَأَى فِـي وَصْلِهَـا آمَـالَـهُ

يَا أَهْـلَ بَابِلَ قَـدْ شَغَلْتُـمْ بَـالَـهُ
بِكُـمُ كَمَـا أَشْغَلْتُـمُ بَلْبَـالَـهُ

فَخُذُوا لَكُمْ عَنْكُمْ بِكُمْ حَتَّى يَـرَى
مِنْكُمْ سَـوَاءً هَجْـرَهُ وَ وِصَالَـهُ (١)

الوحشة ، لا أوحش الله منكم ، الالتفات ، ولـو بالسر ، الى السوى ؛ والفـرقـة التفريـق من الوصل والهوى . فالأول اعـراض عنه والثانـي طلب الحظ منه . والعبوديـة اخلاص التسليم والاتيان بقلب سليم . رزقنا الله و ايـاكم الوفاء بالعهود وبلـوغ المقصود بمنـه . وليعلم سيدي أبـو يعقوب أن كتابه وصل وكنت على شوق له ؛ فجدد عندي ما لم ينـدرس ؛ وأكـد عندي مالم يلتبس ؛ وتبركت بـه وتأنست بـوروده . وطلب منـي موصله الجواب . وكان غرضي أن أطيل الكتاب لأنـه عندي مناجاة معكـم وملاقاة بكـم ولكن أعجل الظمآن قبل تمـام ريـه [وغيلان قبل مشاهـدة ميـه] (٢) والأمـل مرافقتكـم والتبـرك بكـم . ويـا سيدي أبا يعقـوب اذكروني ولا تنسوني ؛ فاني أطالبكـم وجميع ساداتي الفقراء بالمـواساة التي بنيتـم عليها طريقتكـم ولتعلم أني محب فيكم و ما جـزاء من يحب الا أن يحب ؛ ولا تقطعـوا عني مكاتبتكم ، فـان لي فيهـا اعتقاد بـركـات

---

١ – من الكامل . وجاء البيت الثاني في را وكـ كما يلي
يا أهل بابـل بالله اشتملتـم بكم كما اشتملتم بل باله (كذا)
وفي رب : يا أهـل بابـل بالله شغلتـم بكـم كمـا شغلتـم بلبـالـه
٢ – كـ : سقط ما بين منعقفين .

واغتنام دعـوات . والله تعالى يعيننـا واياكـم على الاخـلاص في الأعمال ويبلغنا من فضله و جـوده جملة الآمال . والسلام عليكم و على جميع سادتنا الفقـراء ورحمة الله وبركاته . »

ووقفت له ، رحمة الله عليه ونفع به ، على كتاب آخـر للجد ، فيـه فصول كثيرة مـن فصول أوائله : « محمد المسفر ، لطف الله به ، يسلـم على سيدي أبي يعقوب بن سيدي يعقوب ، نفع الله بهما ، وأعاننا على القيـام بواجبهما ، ونعلمه أن الـذي يعلمه مـن حبه واعتقاده فيه وخلوصه في ولائه وتصافيه لم يزل على ما يعهده ويتفقده بذمته وتعهده . »

ومـن فصـول هـذا الكتـاب : « ومحبكـم يشاهـدكم بما جلـوتم ببركاتكـم (١) [مـن مداته] (٢) ويقطـع بذكركم طيب أوقاته ويجد عنده أثـرة فقدكـم اياه بباطنكـم السليم وبـركاته . وأمـا شـوقه الذي بـرح واعتقاده فيكم الذي لم يبرح فأكثر مما تعرفـه و فوق ما أصفه . ولولا عذر وصولي لـم ينب عـن قربى قلمي وعن مشافهـة خطابي توجيه كتـابـي . فباطني عامر بزيارتكـم وشوقي كثير الى مجالستكـم ومحادثتكـم . والله تعالى ييسر أسباب اللقـا و يجعلنـا ممن أطاع واتقـى . وكيف لا أشتاق الى لقائكم وأنتم ممن نرجو بركته دنيا وأخـرى وأعتد بمحبته في الله تعالى وسيلة نافعـة وذخـرا . »

ومن فصول هـذا الكتاب : « و ان مـن ملاطفة سيد الصوفية ومعاتبته القدريـة تنبيهـا على جبر (٣) وقتي بمكاتبته واخفائه في ذلك باطنا فـي ظاهـر معاتبته . وهـو يعاتبني عني ويشير خطـابه الي مني . وهل مكاتبتكم الا لطـائف روحانية ، و مصالح دينية تحض على الخير وتندب اليه وترشد

١ — كـ : بما جلوتم من بركـاتكم .
٢ — كـ : سقط ما بين منعقفين .
٣ — على صرف وقتي ...

الى سبيل البر و تدل عليه ، جوزيت عن حبيب في الله تعالى خيرا و أقامنا الله تعالى في الخير سرا وجهرا . » والى غير ذلك من فصوله .

وفي آخر هذا الكتاب : « يسر الله لنا أسباب قربه وعمر قلوبنا بذكره وحبه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . »

وله اليه فصل من كتاب آخر : « أبقى الله سيدي أبا يعقوب يوسف ابن سيدي يعقوب عامر المغنى رائق المعنى . المملوك محمد المسفر ، لطف الله تعالى به يتوسل اليكم بما بينه وبينكم من صادق ود وتأكيد عهد و حب في طريقتكم وانتماء لكم ولفريقكم أن تجعلوا باطنكم وخاطركم معه في كل الأوقات باغتنام التفكر والدعوات . »

وله اليه فصل من كتاب آخر : « العبد الفقير محمد المسفر ، لطف الله به ، يرغب من سيده وشيخه أبي يعقوب يوسف بن سيدي يعقوب أن يتعهد (١) مجدب أرضه بطيب دعواته و يتفقد وقت الفقير بخاطره وبركاته . فما زال يعلق آماله بساداته الفقراء ويستجدي منهم في ورده وصدره الزاد والقرى . ولم يزالوا يواسونه في فقره ويتلطفون في اصلاح خلله وجبره . ولم لا ؟ وهم الأطباء والأساة وأهل الخير والمواساة ، نفع الله بهم وضاعف بمنه في حبهم وما أشوقني يا سيدي الى مشافهتكم ومجالستكم ! و لو تيسر لي الطريق في زيارتكم وأنا حريص أن تتفقدوني من أوقاتكم (٢) فأنا فقير الى مواساتكم . والسلام عليكم وعلى ساداتي الفقراء ورحمة الله وبركاته »

وله اليه كتاب آخر مقتضاه العذر والاستغفار عن تقصيره في تأخير كتبه عنه وهو جواب كتاب الجد له نصه من أوله الى آخره :

---

١ — وفي ف و ق : ان يتعمد ؛ ولعل الصواب : يتعهد وفي رب و ك : أن يعمر

٢ — ك : ان تنتقذوني من أوحالي .

بسم الله الرحمن الرحيم   صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

جِمْلًا و إِنْ أَفْرطتَّ فِي آلتَّقْصِيرِ
جِمْلُ آلأَذَى مِنْ شَأْنِ كُلِّ كَبِيرِ

وَ أَنَا جَنَيْتُ وَجِئْتُ مُنْكَسِراً وَمِنْ
خُلُقِ آلتَّصَوُّفِ جَبْرُ كُلِّ كَسِيرِ

وَ بِبَاطِنِي قَدْ قُمْتُ مُسْتَغْفِراً (١) لَكُمْ
فَهَبُوا (٢) بِبَاطِنِكُمْ قَبُولَ فَقِيرِ (٣)

اذا أحكمت الطريق بواطن الأحباب ، وقامت بما للمحب من وظائف وآداب ؛ و صحت (٤) روحانيتها ظلمات الحجاب ، اندرج في رأي البصيرة رأي العين ؛ وارتفع الفرق بين القرب والبين (٥) ؛ فحينئذ من يرى القرب زيادة في حبك ؟ والبعد أن يشتغل عنك ولو بملاحظة قربك . وكيف يشتكي البعد من يتوسم نسيمه في كل وسيم ، ويجد طيبه في نفحة كل نسيم ، ويذكره مع ظاعن ومقيم ؟ فالحب ـ زاد الله في معناك وعمر باللطائف السنية مغناك ـ فناء في بقاء وبقاء في فناء ، وحالة لطيفة يخفى عنده الفرق بين ناء و دان . فان بقيت بين المحب بقية تمدها لطيفة نور الالمعية فهم معنى دوام المعية و معنى الجمع في الفرق والفرق في الجمع . وكيف احتجاب الشفع عن الوتر بالشفع فينشد بلسان حاله لا بمقاله :

---

١ — هذا الشطر مضطرب الوزن ؛ جاء كذا في كل المخطوطات وقد زدنا بين منعقفين لفظة لكم ليقوم الوزن .
٢ — في جل المخطوطات : فلتهبوا ؛ في ك : فلتنهبوا (؟) . ولعل الصواب : فهبوا .
٣ — من الكامل .
٤ — كذا في كل النسخ .
٥ — ك : وارتفع الفرق بين العين والقلب .

وَ غَنَّى لِي مُنَى قَلْبِي ۞ فَغَنَّيْتُ كَمَا غَنَّى
وَ كُنَّا حَيْثُ مَا كَانُوا ۞ وَ كَانُوا حَيْثُ مَا كُنَّا (١)

فان أخذه محبوبه عن نفسه وأذهله عن معقوله وحسه ، خرج مطلوبه عنه الى اختيار مطلوبه ولم ير محبوبه الا لمحبوبه فتخاطبه نتائج الطريقة عند الاستغراق في بحار الحقيقة .

تَمَنَّى ٱلْمُحِبُّ يَرَى عُلْوَةً ۞ وَقَدْ شَاعَ فِي حُبِّهِ وَصْفُهَا
أَعَارَتْهُ عَيْنَا يَرَاهَا بِهَا ۞ فَكَانَ ٱلْبَصِيرَ لَهَا طَرْفُهَا (٢)

ايه يا أبا يعقوب ! افهم رقة الزجاجة [والحمل] (٣) . فمثل روحانيتك الحافظة لآداب الفقر يفهم معناها الدقيق ، ويخرق وان عز حجابها الرقيق . فهنيئا لك ان وافيت الطريق ورعيت فيه حق المصاحب والرفيق ؛ وجبرت وقت كاتبها الفقير بخاطرك ؛ وشفعت باطنك الصافي بظاهرك فتفضلت في الكتاب مرة بعد أخرى ولم تبق لي عن التقصير في حق جوابكم عذرا ؛ ولم تنتقل عن اعتنائك لعنائك ولم تخرجني على جفائي عن أحبابك ؛ ولا أقول : ان لي عذرا بل أقول : غفرا غفرا فأنا ظلمت نفسي ، وندمت اليوم على تقصير أمسي ؛ والندم توبة وكم أزالت وحشة الغيبة أوبة . و قد قمت في غيبتكم مستغفرا بباطني والطريق أمانة وأنا أرتقب لحق الظاهر مكانة ، فأحط الرأس مستغفرا وأقوم بطريق سادتي الفقرا ، واقبالكم المقرون بالقبول مأمول وربعكم بالفضائل مأهول . والحمد لله تعالى والله سبحانه يمد نورانية أبصارنا بأنوار فتحه وينسخ ليل البعد بتباشير نهار القرب وصبحه ويحفظ أوقاتنا باستحضار اسمه الرقيب ويعين كلامنا على مايجب لأخيه في المشهد والمغيب . ويبلغنا من

١ – من الهزج .
٢ – من المتقارب .
٣ – ك : سقط ما بين منعقفين ؛ وفي ف : واحمل .

فضله آمالنا ويحمل همنا مآلنا بمنــه وفضله . والسلام عليكــم وعلى مــن بحماكــم ومن شمله نظركم من الفقراء وأنتم واسطــة عقدهــم ومصطفى عين وردهم لترتيب وردهم . مــن العبد المقــر المفتقــر في وروده وصــدوره المنكسر قلبه بتفريطه فيما مــر مــن عمره ، محمد المسفــر ، لطف الله بــه وأفاض علينا من بركات أهل الخير في حاله ومنقلبه بمنه وفضله ، ورحمــة الله وبــركاتــه . » انتهــى .

ولا نطــول بذكر كتبه اليه ؛ فقد وقفت على رزمــة من مكاتبته اليه وهي كلها تدل على محبته في الفقــراء ومباطنته لهم ، وميــل نفسه اليهم واقتراحه عليهــم واندراجه في سلكهــم وتمنيه أن يكون في بسائط حضرتهم وكفى بــه الحجــة في مكــانــة المكتوب اليــه ومحــاسن الطريــق والأخذ فــي معانــي أمــور التحقيق . وكــل ذلك من بركة الشيخ أبــي مدين ، رضي الله عنه ، والانتساب اليه . فتلامذته أهل الصفا وهــم محفوظون بالله تعالى وما من مؤذ لهم الا و يلحقه ضرر ما . والمشاهدة في فصول ذلك كافية . وقــد حكى الفقيه أبو الربيع المديوني ، رحمه الله ، أنــه وصل بعض أهــل المكاشفة الى بعض من تلامذة الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، فانكــر عليهم أمــورا من احــوالهم . فأعلموا الشيخ أبا مديــن ، رضــي الله عنــه ، بــذلك فقــال لهــم : « سيسلب ما يجــد (١) مــن المكاشفة . » فسلبهــا الرجــل ، والعياذ بالله ، بتغيــير قلب الشيخ أبي مدين عليه لانكــاره على تلامذته ، وصار واحــدا من العامــة . نسأل الله العافيــة . فهذه عاقبــة من مقامــه المكاشفة فأحــرى غيره . و قــد ظهر ببلادنا رجــل مغربي يقال لــه علي المغربي وهــو المدعو بالمظلوم المدفون بمقربة مــن بجايــة ، وذلك قبل الثلاثــين وسبعمائة . وكان معه جمع كبير فكان بعضهم يقــدح فــي تــلامذة الشيخ أبي مديــن و يصرح بأشياء . سمعت جــدي للأم ، رحمــه

١ — ف : ما يوجد ؛ كـ : سيسلب من المكاشفة . وفي التشوف : فقال لهم : سيسلب ما وهب . فسلب المكاشفة ... راجع ، ص ٣٢٢ :

الله تعالى ، يقول : « ركبت اليه من موضعي و نهيته عن شيء سمعته وأمرته بالانفراد ونصحته في الله تعالى . فسبق قدر الله تعالى أنه لم يقبل . و شكا به الى بعض الولاة من أعجل . فضرب عنقه وفرق جمعه . »

قلت : وفضلاء الفقراء لايسلكون هذا الطريق ولا يتعصبون في سد باب التحقيق لأن المؤمنين اخوة في الدين ولا تقع المنافرة الا من ضال جاهل . فان الأصل البدار الى الهداية بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ، عليه السلام ، والتعاون على ذلك على يد من شاء الله تعالى من الأشياخ المهديين المعلمين .

وما كانت طريقة الأشياخ الا الحرص على مثل ذلك كالشيخ أبي محمد صالح ، رحمه الله ، ونفع به . وانه كان اذا جاءه الفقير عرفه بعيوب نفسه وأمره بالوحدة ودرجه في أوراده حتى يصير من أهل المجاهدة . وانتفع كثير من الناس على يده وبركته . وشيخه أبو محمد عبد الرزاق الجزولي (١) من كبار تلامذة الشيخ أبي مدين . وقبره قرب الاسكندرية وأما قبر الشيخ أبي محمد صالح فقد وقفت عليه بآسفي سنة ثلاث وستين وسبعمائة و رأيت هنالك أحفاده . وهذا البلد آخر المعمور في الأرض من الجانب الغربي و يرده أهل الله تعالى . ورايت هنالك من الاخيار كثيرا . وأكبر الحفداء حينئذ سنا وقدرا الشيخ الصالح المسن الحاج الشهير المعظم أبو العباس أحمد بن يوسف . له معرفة لسلفي . وقال : « صليت الجمعة بقصبة قسنطينة خلف جدك . » وأخبرني الثقة أن له ثماني عشرة حجة و أما هو فكان يكتم ذلك . قدمت عليه يوما في وقت تعذر عليه فيه الطعام . فدعا بعسل مصفى وحله بالماء وسقاه لي بيده المباركة . بيني وبينه مواصلة ربانية من كل وجه . وكانت له أوراد لا يفارقها بوجه وكأنها في وقتها كالخمس في وقتنا . وكان يتحدث بالأمور المستقبلة في أحوال السلاطين ويقع ما يتحدث به . وكانت له

---

١ – التشوف ، ص ٣٢٦ .

منزلة علية عند الأمراء والأخيار . ولم يذكر التادلي أبا محمد صالح ذكر استيفاء وانما أشار اليه في بعض المواضع من كتابه فمنها في أوله حيث قال : « وقد شرعت في تصنيف هذا الكتاب في شهر شعبان سنة سبع عشرة وستمائة ولم أذكر فيه أحدا من الأحياء . قال : وأكبر من في وقتنا هذا حي الشيخ الصالح الصوفي أبو محمد صالح بن ينصارن ابن غفيان الدكالي ثم الماجري نزيل رباط آسفي . قال : وهو [الى] الآن لايفتر عن الجهاد والمحافظة على المواصلة والأوراد . قال : ومن كلامه : الفقير ليس له نهاية الا الموت . قال : وحدثني عنه تلامذته بعجائب الكرامات . » (١) وذكره أيضا حين عرف بابي ابراهيم اوادار ، (٢) نفع الله به . قال هنالك : « وأبو محمد صالح ما زال يزوره . » وذكره أيضا حين ذكر عبد الرزاق الجزولي قال : « وهو شيخ العبد الصالح أبي محمد صالح وهو حي الآن . » قلت : أخبرني غير واحد أن الشيخ أبا محمد صالح لقي الشيخ أبا مدين ، رضي الله عنهما ، وأخذ عنه . وهذا ، والله أعلم ، صحيح لأنه كان معاصرا معه وملازمته للخير قديمة أو يكون أخذه عنه بالواسطة في الابتداء ودلني على صحبته له أن الفقيه القاضي الشهير أبا العباس أحمد بن أحمد الغبريني البجائي ذكر في كتابه عنوان الدراية أنه أخذ علم التصوف عن الشيخ الفقيه الصالح الولي أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم السجلماسي عن الشيخ أبي محمد صالح عن أبي مدين بسنده . وتوفي الغبريني آخر سنة أربع وسبعمائة . قال الغبريني رحمه الله « : أخبرني ابن أبي القاسم هذا أنه خدم الشيخ أبا محمد بالمغرب مدة ، منها أربعة أعوام ، على صفة المحرم . قال : وازاري في وسطي وشملتي على كتفي . وكان اماما في

---

١ – التشوف ، ص ١٣ .

٢ – كذا في النسخ ونحن نظن أن الصواب كما في التشوف : أبو ابراهيم بن اسماعيل بن وجماتن من أهل آدار (ص ٣٥١ و ٣٥٢) و أوادار بالبربرية معناه المنسوب الى آدار

التوحيد ، وقبره بقلعة بني حماد مزور . » و وقفت أنا بـآسفي ، عند بعض أحفاد الشيخ أبـي محمد صالح ، على كتاب مجموع ، فيـه المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، وبدايـة الهدايـة ، والـرسالة القشيريـة بشرحها وعقيدة الجبراني ، و فرائض الصلاة للصقلـي . كـل ذلك بخط الشيخ أبي محمد صالح : وكتب في آخر الكتـاب ما هـذا نصـه : وكـان الفراغ من ذلك على يد العبد الضعيف ، الفقير الى رحمة ربـه أبـي محمـد صالح بن ينصارن بـن غفيـان بن الحاج يحيى بن يلاخت (١) عشية يـوم الاثنـين وهـو التاسع مـن شهـر شعبان ، عـام أربعة وثمانين وخمسمائة. وعلى ظهر الكتاب مانصه : اللهم يا حي ! يا قيوم ! يا ذا الجلال والاكـرام أسالك بـأسمائك الحسنى كلهـا ، ما علمت منها وما لـم أعلم ، أن تغفـر لـي ذنـوبي وتحسن عـوني على طاعتك وتيسر لي أسبابها . فـانـي لا أملك [لنفسـي] (٢) نفعـا ولا ضرا وأنت العـالم بذلك بجودك وكرمك ، يا رب العالـين . وتحت ذلك بخطـه ، نفـع الله به وبأمثاله بمنه وكرمـه :

سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِـي وَقْتِـهِ
وَ أَخُـو اَلْجَهَالَـةِ مُتْعَبٌ مَحْـزُونُ

فَلَعَلَّ مَـا يَخْشَـاهُ لَيْسَ بِكَائِـنٍ
وَ لَعَلَّ مَـايَرْجُوهُ سَـوْفَ يَكُـونُ (٣)

وفي تاريخ نسخه ، رحمـه الله ، لهذا الكتاب كـان الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه ، ببلاد افريقيـة وبعـده استقـر ببجايـة .

وقد سألت عن جملة الطوائف التي هـي بالمغـرب الأقصى في الأرض التي تنبت الصالحين كما تنبت الكلأ، فوجدتها متعددة باعتبار تعدد الأشياخ.

---

١ — كـ : .. بـن بـلاخت .
٢ — را ، كـ : سقط ما بـين منعقفين .
٣ — مـن الكامـل .

و أقرب ما ترجع اليه ستة : الشعيبيون ، و هم طائفة أبي شعيب آزمور من أشياخ الشيخ أبي يعزى .

والصنهاجيون من طائفة بني آمغار من بلد تيطنفطر من أقران أبي شعيب .

والماجريون ، وهم طائفة أبي محمد صالح ، ومنهم الدكاليون .

والطائفة الرابعة ، الحجاج ؛ أي لايدخل في جمعهم الا من حج بيت الله الحرام . وقد دخلت دار شيخهم وتمتعت بلقائه و اغتنمت فضيلة دعائه . قصده شاب منقطع للعبادة ذكر له أنه ابن زفان وطلبه في مكان يأوي اليه وحده . فأعطاه غرفة على باب داره وأتاه بالطعام بعد صلاة المغرب فقال له : « ياسيدي ارفعه عني فان قوتي بعد اربعين يوما وبقي علي من المدة كذا وكذا . » ورأيت عند هذا الشيخ غرائب وعجائب .

والطائفة الخامسة الحاحيون . ومنهم جملة من جبل درن وهو الجبل العظيم الذي ليس على وجه الأرض مثله في الارتفاع والمياه والخصب. وقد دخلت اكثره وكأن العالم الأرضي بأسره منحصر فيه . وهو من عجائب الدنيا . و أعظمه قبلي مراكش . وهذه الطائفة الخامسة طائفة الشيخ الحاج الشهير أبي زكرياء يحيى بن أبي عمرو عبد العزيز بن عبد الله بن يحيى الحاحي (١) ويقال انه من آل بيت النبي الكريم وشرفه غير ظاهر بين الناس في المغرب . وانما انتسب أحفاده اليه . وقبره بتيغزا من بلاد حاحة . ولم أصل الى ذلك المكان وبقي بيني وبين تيغزا في وجهة غربية بانحراف الى القبلة عن مراكش نحو المرحلة فأراد الله بالرجوع . والموضع موضع خير وعلوم وقراءة وتدريس

---

١ — را : .. أبي زكرياء بن أبي عمر عبد العزيز بن عبد الله ابن يحيى ؛ ك : أبي زكرياء يحيى بن أبي عمر ....

وكذلك الموضع القريب منه المعروف بـآدقي (١) (بالقاف المشددة) وأكثر اعتناء الحاحيين بالتهذيب والفرائض والحساب . ولم أذكر تاريخ وفاة الشيخ أبي زكرياء يحيى الا أن ظهوره كان في آخر المائة السابعة ووفاة أبي مدين أو الشيخ أبي محمد صالح فغير صحيح لبعد الزمانين (٢) . و أحفاده وأصحابه يقولون شيخه أبو القاسم البكري وشيخ البكري أبو سعيد ، وشيخ أبي سعيد الشيخ أبو مدين . بينه وبين أبي مدين شيخان . هذا قول المحققين من أحفاده وطائفته وغير ذلك ملغى . وقد رأيت من رأى من رآه . وكان لأبي زكرياء هذا عند الجمهور قبول تام وله في الفقر كلام حسن وتحقيق وتدقيق ووصايا حسنة بكلام لايصدر الا عن عالم أو ولي وكذب أكثر الناس خصوصا العلماء انفراده بالأحوال في طريقته . وتغالى الجهلة من تلامذته في تعظيمه وتحقيقه وشدة اقتدائهم بجزئياته وتغليظه وترقيقه وقوة انقباضهم عمن خرج عنه في تغريبه وتشريقه أو ركن الى غيره في ألمعيته وجمعه وتفريقه . وهذا هو موجب ضلال جهلتهم ، وهو السبب فيما صدر عن العلماء في مشيختهم . وفي طائفته أخيار صلحاء ، فلا تظن الناس كلهم سواء . وقد دخلت تانشناشت (٣) وهي موضع فريق من حفدته في أحواز مراكش ، سنة ثمان وستين وسبعمائة . و لقيت بها أخيارا ورأيت فيها شيخا منقطعا في مغارة للعبادة والناس يتبركون به ولا ينصرف أحد حتى يناوله سماطا من تحت رأسه . وأفضل الحفدة حينئذ الشيخ الصالح الفقيه أبو الحسن علي بن عبد الله بن موسى بن أبي زكرياء و يعرف بابن الشيخ . دخلت داره وأقمت عنده واستحسن عشرتي وما كاد يطلقني . و رأيت له دراية لكتاب ابن الحاجب في الفقه . وما رأيت في الظاهر ما أنكره بوجه .

---

١ – را : بتادقى

٢ – كذا في كل النسخ ولعله سقطت جملة كانت تؤدي هذا المعنى . ان أبا زكرياء الحاحى لم يلتق بأبي مدين لان بن وماتيهما مائة سنة.

٣ – كذا في را ، ق وكـ ؛ وفي كـ على الهامش : تانشاشت ؛ ف : تانشتانشت .

وكان هنالك حينئذ طالب يدعـو على ظالم بعقب كل ختمة يختمها . أخبرني الشيخ أبو الحسن هـذا أن معه على ما أخبره ستمائة ختمة . وكـان ذلك الظـالم في أشد صولته . وكنت أرقب عـاقبته حتى علمت عـن قرب أنـه سجن وقتل نفسه ، والعياذ بالله ، في السجن بالخنق . و أخـرج و دفـن مـن غير أن يصلي عليه أحـد من المسلمين ، و لـم يحضره الا من حملـه وحـده .

أمـا الطـائفـة السادسة فهم الغماتيـون وهـم طائفـة الشيخ الولي الشهير أبي زيد عبد الرحمن الهزميري ولهم أخوة محدثة بطائفة أبي زكـرياء وسائر الطوائف لهـم أخوة بطائفة أبي محمد صالح . وقبر أبي زيـد هـذا داخل باب الفتوح من أبواب مدينة فاس في روضة الأنـوار بـازاء جـامـع الصابرين . وقد أدركت كثيرا ممن أدركه . أخبرنـي بعض شيوخ عـدول مراكش أنه رآه على ظهر بهيمته وهو على جنبه وقد شد عليها بشريط لضعفه و كبر سنه والناس يتزاحمون عليه ويمسحون وجوههم بطرف ثوبه ويجذبه كل واحد منهم اليه والخدمة به دائرون . وكان أعجوبة في زمانه . يتحدث دائما على ما في ضمائر الناس ولايعين أحـدا بالفضيحة وانـه يقول : مثل رجل فعل كـذا في مكـان كـذا . و أخبرني شيخ أشياخنا في المعالم السماويـة والمسائل الحسابيـة الشيخ الامـام الصالح أبـو العبـاس أحمد بن محمد ابن عثمان بـن البنـاء العددي المراكشي ، وكانت وفـاتـه في عـام أحـد وعشرين وسبعمائـة ، أنـه ما زال يقصده في حـل المسائل العلميـة التـي تشكل عليه من الهندسة وغيرها قـال : « ومـا زلت أمضي اليـه فـأجد الازدحـام عليه فنسمع جـوابي في طرف الحلقة وننصرف من غير سـؤال [منـي اليه] (١) . » حدثني غـير واحـد ممن لقيت من الأعلام أن انتفاع ابـن البنـاء في علومـه ومنزلته الدينيـة والدنياويـة انما كـان من بركة الهزميري لأنه بلـغ في دينـه النهايـة وفي دنياه الغايـة .

---

١ — زيـد ما بـين منعقفين عـن كـ .

حدثني قاضي الجماعة بمراكش الشيخ الفاضل المتخلق الحافظ لسيرة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أبو زيد عبد الرحمن القيسي ويعرف بطالب عافية أنه أراد أن يقرأ عليه علم العروض . قال لي : « ولا دريت هل له معرفة به أم لا . وفكرت في نفسي كيف يكون سؤالي عن ذلك . فدخلت عليه ، وهو في حلقة العلم وأنا في قلق من ذلك . فجلست ثم سمعته قد رفع صوته وهو يقول مثل ما يقول العروضيون كذا وتكلم في فن العروض . فعلمت أنه معي . » و ما زال رحمه الله ، يحدثني بهذه الحكاية و تدمع عيناه في أثنائها . وهذا الشيخ أول من قرأت عليه فن المنطق بمراكش . وكان من الفضلاء . حضر في مجلس علمه طالب أعرفه . فصار يعترضه و يقول : « كفر هذا الشيخ في كذا . » فخرج في عمالة سلطانية وخرج معه عدوي يبلغه الى المكان الذي خرج اليه ويعلمهم به على عاداتهم في تنفيذ أوامرهم . فلما كان في مفازة من الأرض المراكشية أصابه شيء مات منه . فنظر [المراكشي] (١) العدوي في أمره ، وبعد العمارة منه فأتى به الى مزبلة دار خربة وشق حفرة بركيز مزراقه ودفنه هنالك من غير غسل و لا صلاة . فلما بلغ خبره لهذا الشيخ قال : « لا اله الا الله، رجل استهزأ بالناس ، فاستهزأ الموت به . »

وحدثني قاضي الجماعة بفاس الفقيه المرحوم أبو محمد عبد الله الأوربي وهو ممن رأى الهزميري قال لي : « خرج أبو عبد الله الكومي المراكشي في قافلة يوما قاصدا الى زيارة الفقيه أبي عبد الله البقوري مكمل اكمال المعلم قال : « فدخلت عليه فوجدته بين كتبه على التراب وعليه مرقعة غليظة وعرقه يقطر . فجلست عنده ساعة ثم خرجت الى زيارة ابن البناء . فخرجت الي وصيفة خماسية قالت : من هذا ؟ قلت : قل له : الكومي . فأعلمته وأذن في دخولي . فوجدته في

---

١ — ف ، ق : سقط ما بين منعقفين .

قبة رياضه الذي أحدث بناءه بمراكش وعليه ثياب كتان من عمل تونس وفي القبة أقطعة ومخايد (١) وعليها حجاب حسن . فسلمت عليه وجلست. فنادى الخادم وأشار اليها [فقدمت آنية بالسكر وأخرى بالبطيخ] (٢) فقال لي : « ادن . » فدنوت وقلت في نفسي : سبحان الله كيف تركت البقوري ووجدت هذا الرجل . فقال لي : « اسكت و دع الفضول لو كان البقوري في هذا المقام وأنا في مقامه لاختل حال كل واحد منا . »

وكان الكومي من الفضلاء المشهورين بمراكش بالخير والصلاح . وحدثني أيضا هذه الحكاية شيخنا الفقيه الثعالبي أبو العباس المراكشي الشماع بفاس المحروسة بالمدرسة التي يؤم فيها بالطالعة من البلد المذكور . وقال لي « انتفع بالهزميري كثيرا . » كان شيخنا في العلوم السماوية الشيخ الفقيه أبو زيد عبد الرحمن اللجائي ، وهو ممن قرأ عليه يحدث عنه بالغرائب . قال : « وسبب قراءتي عليه أن والدي كان يشدد علي درس الفقه والأخذ بطريقته لأن والده من فقهاء فاس وهو أبو الربيع اللجائي ، من تلامذة القرافي وهو أول من أدخل مختصر ابن الحاجب في الأصول الى المغرب وعنه أخذ . قال لي : رأيت في النوم أني صعدت الى السماء وأنا أقلب النجوم واحدا بعد واحد . فانتبهت وأعلمت والدي من ساعتي فسكت . فلما أصبح ناولني نفقة وقال لي : اخرج الى مراكش واقصد ابن البناء واطلبه في علومه . ففعلت . »

وكان اللجائي آية في فنونه ومن بعض أعماله أنه اخترع اسطرلابا ملصوقا في جدار و الماء يدير شبكته على الصفيحة فيأتي الناظر فينظر الى ارتفاع الشمس كم هو وكم مضى من النهار وكذلك ينظر ارتفاع الكوكب بالليل . وهو من الأعمال الغريبة . وقد

---

١ – كذا في المخطوطات ؛ ومخايد صيغة عامية .
٢ – ك : فقدمت الأطعمة والسكر والبطيخ .

وقفت عليه زمـان قراءتي بين يديه . وقـال لي : « مـا وجدت الا بـركـة ابن البنـاء وما وجـد ابن البنـاء الا بركـة الهزميري . » وقـد ألف بعض فقهاء مـراكش وهو الفقيه المقـرىء أبـو عبد الله بـن تيجـلات ، رحمـه الله ، كتابـا حسنا في فضله وفضل أبي عبد الله أخيه . وحدثنا الثقـات أنـه كان يـوما في مجلس اقـرانه يتكلـم في مسألة . فتكلـم رجـل مـن طرف الحلقـة فيهـا معه فلـم يجبه والرجـل لا يعـرف ، وعليه مرقعـة ، ونظر اليه الحاضرون نظر استهـزاء . فقال لـه الرجل : « يا فقيـه أدرك أمك ، فقـد حضر أجلها . » ثـم قام وطار في الهـواء . فعجب الحـاضرون من ذلك وقـام ضجيج في المجلس وغشي على الشيخ ساعـة وانصرف الى منـزله . فوجد أمـه منتظرة اليه وكانت من الصالحـات . فقـالت لـه : « يا ولدي حضر أجلي وأردت حضورك وأعياني انتظارك . » فجلس عندهـا حتى قبضت . ولمـا فرغ مـن دفنهـا خـرج عـن الدنيـا وانقطـع الى الله تعالى وبلـغ أملـه في مقامـات الأوليـاء . وجاهد مالم يجاهد غـيره . فمن مجاهدته أنه أمر ببناء باب البيت عليه و أنـه لا يحل عليه الا بعـد ستة أشهـر ولـم يدخل معه غير المـاء وحده وسئل بعد خروجه عـن حاله قيل له : « كيف كنت في هـذه المدة ؟ » فقال : « كالميت ، الا أني أجد قـوة عند الصلاة . » وببلد آغمات وقفت على قبر أبـي عبد الله هـذا ، والناس يتبركـون بـه ويتزاحمون عليه .

وتـوفي الشيخ أبـو زيد عبد الرحمن الهزميري ، نفـع الله بـه ، في حـدود سنة ست وسبعمائـة . والدعـاء عند قبره مستجاب ، والى الوسيلة بقبره يلجأ من حدث بـه كرب هنالك . وسميت روضته روضة الأنوار لأنها جمعت من أولياء الله تعالى كثيرا ، و هـو في وسطهم . وآخر من دفـن فيها ، في غـالب ظني ، الشيخ الصالح أبو العباس أحمد المكناسي شيخ الغمـاري الذي أخـذ عنه والدي ، رحمه الله ، روايـة نافع في القـراءة وحـدثـه ابـن برجز ابن بري عنه عن مـؤلفه ؛ هكذا وقفت عليه بخط والدي ، رحمه الله ، في حـدود سنة سبع وأربعـين وسبعمائة . و قبـره يتبـرك بـه .

و رأيت بعض من يعيش بالحرام أخذ في تجديد قبر الشيخ أبي زيد الهزميري ، رحمه الله ونفع به . فنهيته وقلت له : « سألتك بالله ألا تكدر عليه ! » فأبى وجدده بالجير فبعد مدة ضربه السلطان ونزع ما بيده من المال وندم على [ما فعل بعد] (١) ما كلمته به ودثر ما صنع على قبره ولم يبق له أثر .

وسبب حركته من آغمات قضاء حاجة يطول شرحها من السلطان أبي يعقوب المريني وهو في حصاره العظيم ، لتلمسان بعد سبع سنين . هذا ظاهر أمره وفي الباطن يريد أن يصرفه عن ذلك الحصار ويكفه عما انتهى اليه المحصورون من الشدة لانه بلغ ثمن الدجاجة عشرة دنانير من الذهب للقوت لا للدواء وكان للفار ثمن معتبر لا أذكره الآن . فلم يقبل منه فرجع الى فاس ونزل بجامع الصابرين ، وهو موضع مبارك يأوي اليه أهل الفضل والصلاح . فبعد أيام قتل السلطان أبو يعقوب و غرب جيشه بسلطان آخر . فقال له خديمه ظننا منه أنه ما أقام الا ليرغب الله في الفرج : « مات السلطان أبو يعقوب ففرج الله على تلمسان فبسم الله تأخذ في الحركة . » فقال له : « و عبد الرحمن يموت . » بتشديد الميم يعني بعبد الرحمن نفسه فمات بعد أيام يسيرة . ودفن هنالك ، رحمه الله ونفع به .

وقد أخذت طريقه عن ولي الله تعالى الحاج أبي العباس الدكالي عن ولي الله تعالى أبي زكرياء يحيى الغماتي عن الهزميرى نفع الله بهم . وكان يقول : « نشفع في كل شيء الا الموت . » وتنازع الفقهاء بمراكش في الحوض و الصراط أيهما يسبق . فلجأ أحدهم اليه قال : « فلما سألته نظر الى السماء واتسعت عيناه اتساعا عظيما ثم قال : الجنة ، الميزان ، الحوض . و يشير بأصبعه الى السماء . فأعلمت بعض الفقهاء بذلك فبكى وقال : ليس الخبر كالعيان . »

---

١ – الزيادة بين منعقفين عن ك .

وكانت له أحوال عجيبة . قال لي بعض الصالحين : « ما أظن أن يكون أحد بعده كحاله في طريقته وعجائبه . »

ولقد حضرت مع جملة من هذه الطوائف مواطن عدة منها زمان اجتماع فقراء المغرب الأقصى ، على ساحل البحر المحيط ، جوف اقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنفطر ، ومعنى هذا الاسم : عين باردة ، زمان قضائي بدكالة . وهي أرض مستوية طولها مسيرة أربعة أيام وكذلك عرضها . ووجدت فيها خمسة وعشرين مدرسا . وبلغت أزواج حراثتها ، زمان ورودي عليها ، عشرة آلاف و بعض حيوان فيها من انسان وغيره زائد على مثله في قدره . وليس بها نهر ولا عين الا آبار طيبة دخلها القاضي أبو بكر بن العربي ، رضي الله عنه ، بعد رجوعه من العراق وعجب من قلة مائها وكثرة خيرها . وقال : « رأيتها أنبتت ثاني يوم المطر (١) . وكان الاجتماع في شهر ربيع الأول المبارك الأسعد الأنور ، سنة تسع وستين وسبعمائة . وحضر من لا يحصى عدده من الفضلاء . ولقيت هناك من أخيارهم وعلمائهم وصلحائهم ما شردت به عيني بسبب كثرتهم . ومما يدل على نهاية كثرتهم أن بعض أصحابنا الدكاليين الراغبين في الدعاء اشترى لهم بثلاثين دينارا ذهبا عنبا وحده من جنة رجل ولم يكفهم لكثرتهم ؛ وسألت يومئذ عن قيمة العنب فقيل لي : « قفة بدرهم كبير . » وهو ثلث الدرهم الجديد التونسي . و وردت عليهم أصحاب العلل المزمنة كالمقعدين وغيرهم. ورأيتهم يتزاحمون في حلق الذكر ، والمريض يتضرع ويرغب في صلاح جسده كأنه يطلب قوته ؛ فيقوم من يأخذ بيد المريض ويصرفه وقد رجعت اليه صحته . ومنهم من يضربه بطرف كسائه فيقوم كأنه حل من عقال؛ ثم يختلط الرجل الذي يفعل ذلك بالقوم ولا يعرف شخصه . وهذا كنت أسمعه حتى رأيته ، والله ، عيانا . و رأيت ولدا قريب الحلم سيق

---

١ – كـ : ثاني يوم نزول المطر.

الى حلقـة الذكر وفي ركبتيه تشنج يابس جدا رق عظمه منه ولا يستطيع مـد ساقيه معه . فقـام اليه رجـل رقيق أصفـر اللـون ؛ فسمعت آخـر خلفي يقـول لـه : « ليست هـذه قوتك . » ينكـر عليه مبادرته للقيـام وكونـه لم يترك ذلك لمـن هـو أفضل منه . فنظر اليه ، و سكت عنـه ، وأتى الى الصبي ، وأنا أرقبه و مسح بيده علي ركبتيه ومد له ساقيه فامتدا وخفف الله عنه و فـرح الـولد وضحك لقـوة سروره بصحته الا أنـه لـم يكمل بـرؤه وصدق قـول من عارضه . و لا أدري عـاقبة الولد . ورأيت في ذلك المجمع العظيم والمشهـد الجسيم غـرائب وعجائب لايرى مثلها أبدا لتغير الأحـوال بعـد ذلك .

وهنالك لقيت الشيخ أبـا الحسن بن يوسف الصنهاجي مـن آيت محبوب . ولي فخـر عظيم بلقـائه واغتنامي لبركتـه ودعـائـه . وكـان ضخـم البدن جـدا ولا تكف لـه دمعـة . اذا سمع آيـة من كتاب الله عـز و جـل أو حديثا من حديث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أو بيتـا مـن شعـر أو كلمة صوفية ، وضع كفيه على عينيه وأخـذ في البكاء والزيادة فيه حتى يخاف عليه . وقلت لبعض الفضلاء منهم : « هـذا الولي لا يموت الا بالبكـاء ! » لمـا رأيت منه . وكـان من عباد الله الصالحين وأعرف أهـل صنهاجـة باقـراء التلقـين . وله تـلامـذة في الفقـر . وكـان اذا حـدث لـه البكـاء تصيب أهل المجلس خشية عظيمة وتدمع عين كل واحد منهم (١). حضرت معه ذلك غـير ما مـرة . وبت معه في جمع خاص من الفقراء والفضلاء على ساحل البحـر المحيط ، ليلة ، وكانت من الليالي الغريبة ، لـو أخـذت في وصف جزئياتها لطال كـلام الكتاب لذلك . وكـان اذا رآنـي ، وقف وضمني الى صدره ويجيل بيده المباركـة على ظهري ويبكي حتى يخـاف عليه ولا يطلقني الا بعد ساعـة وتصيبني أنـا من مهابته وشـدة حـالـه

١ — ف ، ق : ويـرمقـه كـل واحد منهـم .

قشعريرة ، ويرى الحاضرون أنه حصل لي حظ عظيم بذلك . وبكى مـرة بكـاء شديـدا لمنشد قال :

إِحْفَظْ خَلِيلَكَ لَا تَبْغِي بِـهِ بَـدَلًا
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيمَنْ خَانَ أَوْ غَـدَرَا
إِنَّ الْخِيَانَـةَ لَا تَخْفَى وَإِنْ كُتِمَتْ
كَذَلِكَ الْحُبُّ لَا يَخْفَى وَ إِنْ سُتِرَا (١)

وقصد بعد هـذا التاريخ زيارة امـرأة متعبـدة ضريـرة . فجلس في فـم الغـار الذي كانت منقطعـة فيـه . فسلم عليها و رحبت بـه . ثـم كلمتـه بكلام شهـق منـه شهقـة واحـدة فمـات . فقـالت المرأة : « أركـاز . » للرجـل الذي يخـدمه ، وكان واقفا مـع فرسه ، فقال لهـا : « نعـم . » فقالت له : « ارفـع عني صاحبك ، فـانه مات . » فجاء وجـذبه وحمله على الفرس و سار بـه الى منزله وشاع هـذا بالمغرب ، وتعجب منه كـل مـن سمعه وتشوقت الخواص الى سبب الموت و وقـع البحث عن ذلك فـأقرب ما قيل أنها كلمته في أمـر نبوي كشف له ببركتها عنه فمات عند معاينته ، نفـع الله بـه وبها ، وأعاد علينا من بركته .

هذه عمدة الطوائف الكائنة بالمغرب الأقصى وثم تلامذة ملحقة وخواص محققة وأفراد من الناس على سنن المتقين ومنهم عباد الله المحققون رأيت منهم أعدادا وعرفت من أعيانهم أجـوادا . و أول من رأيت منهم الشيخ الصالـح العـالـم المحقق العـابد أبـو الحجاج بن عمر امـام جـامع القرويـين بفاس ويحيي فيه مابين العشاءين أبدا قائما . وله أوراد مقـدرة ومجالس لقـراءة العلم والتصوف . وتوفي ، وقـد بلغ من السن مائة ، في سنة احدى وستين وسبعمائة . وصلي عليه بعقب صلاة الجمعة وحمل ولـم يبلـغ الى قبره مـن كثرة الزحـام الا بعد غـروب الشمس . ووقف موقفه ولـده الشاب

---

١ – من البسيط .

الصالح العالم الوني أبو الربيع سليمان . ولي بـه معرفـة وأخـوة مـن مجلس العلـم . وكـان من كبار الصالحين ومن أهل الكرامات و فـر مـن الامـامـة وانقطـع لنفسه وأخذ عليـه في ذلك كثـير مـن أصحابه وكنت أنـا ممن أخـذ عليه . و رأيته فـر من طـاعة . فبينما أنـا أتكلـم على ذلك مـع بعض أصحابنا واذا بـرجل من الطلبة أقبل و بيده كتاب فقلت له : « مـا هـذا ؟ » قال : « الطالع السعيد في تاريخ السلطان أبـي سعيـد . » فـأخـذتـه ، فـأول وقـوعي (١) على سنة . فقـال فيهـا : وفي هذه السنة تاب فلان لرجل سماه من امامـة جامع القرويـين . ـ قال : والسبب فـي ذلك أن رجـلا ممن صلى خلفه قال له : سمعتك نونت الميم مـن السـلام عليكـم فقال له : انما قلت : السلام عليكم بضمة واحدة على الميم و أشهدكم أني تائب من هـذه الامـامة . » فقـال لـه الشيخ الولي الشهير أبو محمد الفشتالي ، نفع الله بـه : « شرفتنا شرفك الله ! » فاستغفرت الله تعـالى من أخذي عليه وظهر لي أن هذه كرامـة لـه .

وقصد السلطـان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المـرينـي زيارة أبي الربيع سليمان هـذا . فجلس في جامع القرويـين بعد صلاة الجمعة وكلف قاضي الجماعـة أبا محمد الأوربي أن يجمعه بـه . فقام باحثـا عنه فلـم يوافقه على ذلك . فجاءه برجـل آخـر من الصالحين اسمه سليمان على اسمه يعرف بسليمان ادي (٢) العيون وهو من الأخيار فقال له وزيـره « ما بهذا كلفت . » فقـال له القاضي : « هـذا مبارك ومن أشياخه . » وفصل بـه المجلس وعـدت للقـاضي سياسة حسنة . وطلبـه السلطـان مـرة أخـرى فكتب لـه بـراءة قنـع بهـا السلطـان عـن رؤيته . وقلت لبعض أصحابنـا « هـلا رأى السلطـان ؟ ففي رؤيته تفريج كـرب . » فقال لي : « والله لا رأيته أبـدا . » وكانت لـه البركـة التامة في انقطاعـه للعلـم

---

١ ـ كـ : فأول وقوع نظري على سنة كـذا .
٢ ـ كـذا في را ، ف ، ق وفي كـ : ذي العيون ؛ وفي رب : اد العيـون

والعبادة ولا رأيت أحسن قـراءة ولا أسرع منه فيها لحديث النبي ، صلى الله عليه وسلم . وتوفي على أحسن حال وأبلغ منال و أحمد سيرة ، سنة تسـع وتسعـين وسبعمائة ، وسنه يقرب من أربعين سنة .

ورأيت منهم بفاس ، وهـو حي الآن ، الشيخ الصالح الزاهـد أبـا عبد الله محمد المشنزائي من أرض دكالة . وهـو من الزاهدين في الدنيـا ومن خيار عباد الله الصالحين . ويغلب على ظني انه يحفظ احيـاء علوم الدين لكثرة ذكـره لمسائله ويسحـر الناس بحلاوة لسانـه وفـي تذكـيره ويحملهـم على التدريـج والخروج من الدنيا فيمتثل أكثرهم أمره . و رأيت لباسه تليسا ولا يجلس الا على الأرض بغـير حائل ولا يوسد الا الحجـر . ومـا رأيت في بيته زيادة على أوراق مـن الكتب . ونقـرت يوما عليه الباب وكان في ركـن بيته مـع جمع من الفقراء فـرفع صوته وقـال : « ادخـل يا أبـا العباس ! » فدخلت وعجب الحاضرون من ذلك . وأكثر أكله من المباح المطروح في الأرض من خبز و بقل . ولقي يـوما غـلاما أسـود فقال لـه : « من تكـون ؟ » فقال : « خديم لرجل . » سماه له . فقال : « وأين هـو ؟ » فقـال لـه : « مـات . » فقال له : « أ يخدم أحـد من يموت ؟ » فصاح الغلام وهـداه الله على يـده .

و جعل الصناع يذكرون الله على أشغالهـم وكـان يقـول لهـم : « ما يضركم أن تحركوا ألسنتكم بالتسبيح في أشغالكم . » ولي معه ، رحمه الله ، مجالس وغـرائب وكان يوادعني اذا سافـر ويكتب لـي في مغيبه . ولقيته يـوما في وسط سوق باب السلسلة من مدينة فاس . فوقف معي يسألني عـن حالي ثـم التفت الى فوال فطلب منه الفـول فـأعطـاه كفـا منه فقال لي : « بسم الله . » فتراخيت واسترببت ممن يحضر فعـزم علـي في ذلك فقهـرت نفسي وأكلت معه في كفه الأيسر حبة بعـد حبة في وسط السوق ولـم ينظر الي أحد بقدرة الله تعالى ولـم يحضر من يتحدث عني بذلك . فلما فرغنا منه سره ذلك مني فقبلني في رأسي ودعا لي وانصرف .

و دخـل عنده يـوما قاضي الجماعة بفاس يزوره فقدم اليـه يسـير

طعام عليه ادام . فـأكل القاضي معه لقيمـات و رفع يده ينظر مـا يمسحها بـه . فقال له : « أراك تجل ذلك الحـرام الذي عليك أن تمسح فيـه . » فبادر القاضي ومسح في ظـاهر ثـوبه من جهة صدره . وقيل لي ان السلطان قصد زيـارته فـوقف اليه وفتح يسيرا من الباب وقال له : « مالك عندي ؟ انصرف بالعافيـة ! » و دخـل الباب وغلقه [دونـه] (١) وهـو الآن ، نفـع الله بـه ، يتردد من جـزيرة الأندلس الى أحواز فاس وسبتة وأكثر لبثه في الرباطـات أبقى الله بركته بمنه .

ورأيت منهم بفاس ، وهو حي الآن بها ، ولـي الله الفقيـه الزاهـد الورع أبا عبد الله محمد الجناتي من أهـل العلم والصلاح والزهـد والورع والفلاح . وكان يبرني كثـيرا ويدعو لي ولباسه فيما رأيت اما عباءة مـن تليس أو جبة مـن صوف ولا يغطي رأسه الا في زمـان البرد وكـان دائمـا يطالع احياء علوم الديـن وما كان فيه سير الصالحين . واذا سمع موعظـة يصيح صيحة يبقى لها أثـر في الهـواء . وما رأيته ضاحكـا قط وما رأيته رافعـا بصره في طريـق قط . رافقته بالمغرب ثمانية عشر عاما لم تختلف علي في هـذه المـدة حالته بوجه . وكان عيشه من ضفر يضفره مـن العـزف وكان في بعض الاوقـات يجلس قبالة باب دار السلطـان يتأمل في الداخل والخـارج ولا أدري لـه قصدا في ذلك سوى التفكـير والاعتبار . ولا يقبـل من أحـد شيـئا الا ممن يعـرفه بعلـم أو صلاح . وكـان اذا أراد أن يتنفل بعـد صلاة الجمعـة يخـرج من باب من أبواب الجامع ويدخل من آخـر ويتنفل . فكـان يبادر الى خدمـة الغريب المريض ويسعى في أمـره . وكان الصلحـاء يطعمونـه والفقهـاء يبرونـه والعامـة ترمقه وتشير اليه وهـو الآن على أكمـل حـال نفع الله بـه .

ورأيت منهـم بفاس الشيخ الصالح أبا الحسن علي اللجائي . ولي بـه معـرفـة ويفتقدنـي ويسأل عـن حـالي كثـيرا وهـو ألـين الفقهـاء

---

١ – زيـد عـن ف ما بين منعقفـين .

معاملـة وأعـذبهـم كلاما . اذا جلست معه لا تريد أن تفارقــه . وله سعي في حــوائج المسلمـين وتفريق الصدقـات على الفقراء والمساكـين . و كان يـأخذ في ايصال الحقوق ونصر المظلوم ويدعى اليه الغـريـم كما يدعـى الى الحاكم ولا يتخلف بوجـه . والعلمـاء ينتابـونـه وكـان يجـري على المحتاجـين منهـم بالنفقـة المرتبة اليومية . قلت لبعض الصالحين : « من أين عيشك ؟ » فقـال لي : « مـن نفقـة أجـراهـا علي اللجائي : يـأتي بها في عشية كل يـوم . » وكذلك كان مـع غيره . ويوفي بمـا يلتـزم فـي ذلك وييسر الله له في قصده . و مـا زال يعين من احتـاج منهـم الى التـزويـج وصناعته الخياطـة . وكان كثيرا مـا يحبس الاحيـاء ولباسه جبـة صوف أبيض الى أنصاف ساقيه . ولـه مجاهـدة وعبـادة واذا رأيته تعـرفـه بسمته . وكـان يمشي بعض الأوقـات حافيا في الطـين في حـوائج الناس أو في تغيـير منكـر و يـدخل مجالس الأمـراء بحالته . فـاذا قضى حـاجتـه غسل رجليه وانتعـل وكـان محسودا فيمـا سنـاه الله لـه مـن طـاعـة الامـراء لـه وخضوع الوزراء ، مقـولا فيه كثيرا بسبب ذلك ، ضاعف الله أجـره ونفـع بـه .

ورأيت منهم بفاس ، وهـو حي ، الشيـخ الصالـح العالم أبا علـي الرجراجي (١) من أولياء الله تعالى وصدور العلماء . و شهـرتـه بالصـلاح أكثر من شهـرته بالعلم . لازمته وقـرأت عليه كتاب الحـوفي في الفرائض . وحضرت معه مجالس العلم وانتفعت بـه كثيرا . و كنت أقصده فـي بيان ما يعسر علي فهمه . فـاذا وجدتـه بالجامـع الأعظم وقصدتـه بالسـؤال يحبسني بيده حتى يجلسني مـع السارية ويجلس هـو بين يـدي كـأنه هـو السائل وذلك من تواضعه واحتفـائه . وتبعني يـوما بعض أصحابنا الطلبة فقال لي : « ما الذي يقـرأ عليك عمـر ؟ » لمـا رأى مـن هيبته فـي جلسته ، نفـع الله بـه . وكنت اذا راجعته في مسألة علمية يسكت عنـي حتى يطلعني على ما قال هـو في كتاب مـن الكتب ويبسطـه بـين يـدي

١ — اسمــه عمـر .

و يشير الى المحل باصبعه من غير أن يقول لي شيئا . و رأيته من ورعه وتحفزه أنه لا يحبس الكتب التي تنسب الى قوم و ليست هي لهم كشرح الرسالة المنسوب للجزولي وشبه ذلك . وكان في أكثر أوقاته يخلو بنفسه ولا يعرف أحد أين هو . و ما زال يباشر جسده بتليس ويستره بجبة . وعيشه من حبك البرانيس في بعض الأوقات وغلة دويرة ورثها من أبيه . وأكثر طعامه ما يشتري من أولاد الكوشة وقال لي : « ليس لي عادة في غداء أو عشاء وانما اذا احتجت أكلت من غير توقيت . » وكان هو القارىء في مجلس شيخنا الفقيه العالم الصالح المفتي بفاس أبي محمد عبد الله الونغيلي الضرير من تلامذة أبي الربيع اللجائي الذي قرأ على القرافي . وقد انفرد الونغيلي بفهم كتاب ابن الحاجب في الفروع والأصول وعليه ختمت الأصلين بفاس بمدرسة الوادي نفع الله به . وكان الرجراجي أيضا يحضر معنا مجلس شيخنا الفقيه الحافظ الصالح المفتي الحاج أبي العباس أحمد بن القباب في الحديث والفقه وأصول الدين . و كانت وفاة هذين الشيخين ، رحمهما الله ونفع بهما ، عام تسعة وسبعين وسبعمائة . وسرق لي يوما قدماي (١) في صلاة العصر في المسجد الذي يقع فيه حضورنا عند آبن القباب . فسكت وانعقد المجلس وجلست وفي نفسي منه شيء ولم أعلم بذلك أحدا . فجاء الرجراجي على عادته للحضور وجلس بجنبي ساعة ثم خرج عنا خلاف عادته وجاء بقبقاب [قدمه محتفيا] (٢) وقال : « امش بهذا ، وطيب نفسك على من أخذ قدميك . » فقبلته وعجبت من ذلك ، نفع الله به . واذا عسر علي أمر دنيوي قصدته فيه و أقول : « أريد كذا وكذا . » فيسكت وتدمع عيناه ثم يقول لي : « نعم ان شاء الله . » فييسر الله عز وجل في ذلك . وما زلت أفعله معه . وقدم للخطابة بالجامع الأعظم من عدوة الأندلس بفاس . فخطب بها بعض

---

١ — في مخطوطتين : قدما ؛ في غيرهما باستثناء كـ : قدمي ؛ في كـ : قبقاب . ولا شك ان القدم ، القبقاب .

٢ — كـ : سقط ما بين منعقفين .

جمعة من غير أن يغير ثوبه ثم فر من ذلك . وهو لا يرد زيارة السلطان له ويجلس معه ويحضه على الخير و على رعي من يستند الى الله تعالى وان كان كاذبا . و يمتثل السلطان ما يأمره به من أفعال البر . و سعى في هذا الزمان في تغيير المنكر بنفسه وأقام الحد على من يرى أنه لا يحسن عليه بذلك وظهر في ذلك ظهورا تاما (١) وبسر الله له في هذه المطالب وأعانه العامة والخاصة بحيث لو قال : « هذا اقتلوه ! » لقتل قبل تمام الكلام . وتفقد أمر القضاة وأصحاب الأحباس و غير على من لم يصلح وصارت الخاصة والعامة تحت طاعته لا بالتزام أمر ولا مخافة شر و انما خاف الله تعالى فخاف منه كل شيء . و ما زال يتفقدني بالسؤال ويبعث لي بالدعاء والسلام ، أبقى الله بركته وضاعف في أهل الدين حرمته بمنه وكرمه .

ورأيت منهم بفاس الخطيب الشهير الصالح الكبير أبا عبد الله محمد بن عباد الرندي و كان والده من الخطباء الفصحاء النجباء . و لأبي عبد الله هذا عقل وسكون وزهد بالصلاح مقرون وكان يحضر معنا مجلس شيخنا الفقيه أبي عمران موسى العبدوسي ، رحمه الله . وهو من كبار أصحاب ابن عاشر ، رحمه الله ، ومن خيار تلامذته وله كلام عجيب في التصوف وصنف فيه ما هو الآن يقرأ على الناس مع كتب التذكير و له في ذلك قلم انفرد به و سلم له فيه بسببه . و من تصانيفه العجيبة شرح كتاب الحكم لابن عطاء الله في سفر رأيته وعلى ظهر نسخة منه مكتوب :

لَايَبْلُغُ ٱلْمَرْءُ فِي أَوْطَانِهِ شَرَفًا
حَتَّى يَكِيلَ تُرَابَ ٱلْأَرْضِ بِٱلْقَدَمِ (٢)

---

١ – را ، ف : ق ... في تغيير المنكر بنفسه وظهر نفعا من التهم وأقام الحد على [...] ويسر الله ...
٢ – من البسيط .

ومن كلامه فيه : « الاستئناس بالناس من علامة الافلاس ، و فتح باب الأنس بالله تعالى الاستيحاش من الناس . » ومن كلامه فيه : « من لازم الكون وبقي معه و قصر همته عليه ولم تنفتح له طريق العيون الملكوتية ولا خلص بسره الى فضاء مشاهدة الوحدانية فهو محبوس بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته . » الى غير ذلك من كلامه . وهو لايرد زيارة السلطان له ويحضر السماع ليلة المولد عنده . و ما رأيته قط في غير مجلس جالسا مع أحد . وانما حظ من يراه الوقوف معه خاصة . وكنت اذا طلبته بالدعاء احمر وجهه واستحيا كثيرا ثم يدعو لي و أكثر تمتعه من الدنيا بالطيب والبخور الكثير . ويتولى أمر خدمته بنفسه . ولم يتزوج ولم يملك أمة . ولباسه في داره مرقعة . فاذا خرج سترها بثوب أخضر أو أبيض . وله تلامذة كلهم مباركون . وبلغني عن بعضهم أنه تصدق حين تاب على يده بعشرة آلاف دينار ذهبا . وهو الآن امام جامع القرويين بفاس وخطيبه . وأكثر قراءته في صلاة الجمعة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ (١) . » وأكثر خطبته وعظ ومثله من يعظ الناس لأنه اتعظ في نفسه . وقد أوحى الله الى عيسى ، عليه السلام : « يا عيسى ، عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني . » ذكره الغزالي . وعهدي به أنه على صفة البدلاء الصادقين ، أكثر الله مثله في الاسلام بجاه النبي عليه السلام .

ورأيت منهم بفاس المرأة الصالحة مؤمنة التلمسانية . وتبركت بها وما زالت على ما تقرر عندي ، تخصني بالدعاء في ظهر الغيب . وكان قاضي الجماعة بفاس أبو عبد الله المقري ، رحمه الله ، يزورها ويسعى في قضاء حوائجها . وكانت على زهد وتقشف وعبادة و ورع . وكان قوتها في العام من غزل بديها من نصف وسق شرعي من الزرع وهو ثمنه ونصف بالكيل الجديد ببلدنا . لاتقبل من أحد شيئا . و ما زالت تقيم بدارنا

---

١ — سورة النصر .

أيـاما متوالية ، لا تأكل شيئا . وكانت تقيم عندنا الشهر ونحوه على يسير من قـوتها و مـا أكلت طعـاما لنا قط . وهـذه عادتهـا مـع غيرنا . وكـان الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن عبد الوهـاب المعلم لكتاب الله تعالى هـو الذي يكتب لها لوحها و يبادر بـه . وكـانت تنقطـع عـن مخالطـة الناس في رجب وشعبان ورمضان ولا تساكن أحدا ولا يراهـا في زمن انقطاعها أحد من الناس ولا تكلمه . واذا احتاجت الى شيء كالزيت تضع البطة عند الباب والدرهم بازائها فيبادر اليها به . وكذلك غيره . وقصدتهـا في بعض أشهـر انقطاعها ، فوقفت الي و كلمتني ومنعتني من الدخول وقالت لـي : « لـولا مكانتك عندي يا أحمد ماكلمتك و مـا فعلته مـع غيرك . » وأراد سيد الشرفاء و جليس الأمـراء الفقيه العالم العلم الصدر الشيخ الشهـير أبـو القاسم الشريف التلمساني زيارتها فأبت وقالت : « يعظـم علي أن يقصدنـي شريف . » وأيضا « هـو ممن يوالي أهـل الدنيـا . » وسألتها مـرة عما تكلف به . فقالت : « حسكة أخلل بها أسناني . » فانصرفت ووجدت فـي طريقي حملا من الحسك بازاء كوشة . ففرحت بتيسيره وأخذت منه نحـو الثلاث ورجعت اليها فقالت لي : « من أيـن هـذا ؟ » فـأعلمتها فقالت لي : « و هـلا استأذنت صاحبها ؟ ردهـا اليه ! » فرجعت الى صاحب الحسك وطلبته في أن يسمح . فسمح وقال لي « لا حظ لهـذا (١) . » فرجعت اليهـا وأعلمتها فقالت لي : « ماكان فيه هـذا لا حاجة لي به ، سر في حفظ الله تعالى . » فانصرفت وعلمت أن قصدها أن تطلعني على آداب دقيقة و تنبهني على ما أنتفـع بـه . ورفعت اليها مـرة كعيكات ورغبتها في القبول فقبلت ذلك مني فكنت بعد ذلك اذا زرتها تقدم لي كعكـا ولا أدري من أيـن هو . فقدمت لي يوما واحـدة من الكعك وتبسمت وقـالت لي : « هـذا آخـر كعيكاتك ولا أكلت الا متاعك . » وكأنهـا تحذرني من مثـل ذلك ، نفعنـا الله بهـا . و رأيتهـا مرة عليهـا جبة صوف وعلى رأسها طرف من تليس

١ — كـ : الأمـر سهـل .

معقود تحت ذقنها و شيب رأسها ظاهـر على جبهتها و لـوحها فيـه من سورة البقرة بيدها . قالت لي : « كيف يكون حالي يا ولدي بين يدي ربي ! » وأخذت في البكاء . كانت تقول : « أريد أن أمـوت بعباد تلمسان . » وتكرر ذلك . فلما قربت منيتها يسر الله لها في السفـر الى تلمسـان . فسافـرت وتوفيت بها بعد وصولها اليها بأيام ، رحمها الله ونفع بها .

ورأيت منهم شيخا صالحا من المصامدة لا يألف الى انسان ولا الى مكان وما رأيت أنـور من أطراف بدنـه لكثرة الـوضوء وعليـه مـرقعـة وبيده ركـوة . جلست معه وسألته مختبرا عـن مسألة في الوضوء . فقال : « تختبرني . » فاستغفرت الله تعالى واعتذرت لـه حتى طـابت نفسـه . وتمتعت بـه يوما في منزل مـن منازل الباديـة وجلست معه بعـد صلاة المغـرب ذلك اليوم خارج مسجد المنزل و معنا امـام المسجـد وبعض أهل الـدار . فقال لهـم : « كيف أنتـم ؟ » قـالوا لـه : « بخـير اذا أمطرنا الله تعالى . » وكـان ذلك في ابريل . فقـال : « اللهم أمطرهـم الليلة الليلـة الليلة . » ولم تكن علامة البتة و افتـرق الناس . فلمـا كان ، والله لا الـه الا هـو ، آخـر الليـل أنـزل الله المطر الكثـير . فخـرجت بعد الصبـح متعجبا وسألت امـام المسجد عنه فقال لي : « طلبته انا قبلك فلـم أجـده ، نفـع الله بـه . »

ورأيت منهم شيخا خـارج مدينة سلا في مسجد منقطـع بموضع يقال لـه العلاني لا أذكر الآن اسمه ويغلب على ظني أنـه مـن بـلاد حـاحـة وكنت أسمع عنه أنه يتحدث بما يتحدث من أحوال الدنيا . والسبب في لقائه أني قدمت على مدينة سلا في هـذا اليوم و لي معـرفـة بواليها . فقلت لمن معي : « ان أردتم الاتساع فنزولنا بدار الوالي أولى بنا . لكنه يعسر علي أن أقصده . » وتـداولنـا في هـذا ثـم رأينـا فرسانا أقبلت متـوجهـة الى طريقنا . فلما وصلوا الينا و اذا بـه من تكلمنـا عليه . فسلم علينا وشكرت

الله تعالى فقال لي « خـرجت برسم اصراف كتـاب (١) الى السلطـان . فـان شئت أن تصحبني حتى أفـرغ من هـذا الكتاب . » فرجعت معه فقال : «انزل أنت في ذلك المسجد . » فوجدت هـذا الشيـخ وهـو يقيس الظـل لوقت الصلاة . فسلمت عليه وسألته عـن الوقت فقال لي : « هـذا وقت الصلاة . » فصلى بي الظهر . فلما فـرغ من صلاتـه سألته عـن اسمه ومن أيـن هـو فأعلمني فوجدته الرجل الذي كنت أسمع عنه . فسررت بذلك وجددت السلام عليه وتمتعت بالحديث معه و بالتبرك منه الى أذان العصر . وكان مما قال لي : « خرجت من سلا فارا مـن صاحبها لأنه طلب لقـائـي فامتنعت من ذلك . » فقام وأذن العصر ودخل صاحب سلا ومن معه برسـم الصلاة . فصليت بالجميع لأن هـذا المبارك طلبني ذلك وصلى الوالـي بجنبه وانفصل الناس بعد الصلاة وجلست معه ساعة وليس عنده [....] (٢) و آنيـة الوضوء . و سألته عما يتحدث و عرضت له أن غرضي في سماع شيء مـن هـذا . فسمعت منه أمـورا مستقبلـة وقعت كلها وقلت : « بفضلك ، بأي الوجـوه تطلع على مثل هـذا ؟ » فتبسم وقـال لي : « يا أخـي مـن أصحابنا من يراه مكتوبا في الهـواء . » [..] (٣) بلقائه . وسرنا الى البلد . فبعد مسافـة وقـع مني حديث في بعض ما سمعت منه مـع والي سلا . فقال لـي : « مـن أيـن لك هذا ؟ » فقلت لـه : « مـن فـلان . » فقال لي : « وأين رأيته ؟ » فقلت له : « هو الذي صلى العصر بجنبك [...] (٤) فتأسف وقـال : « حجبني الله عنه ؛ كـل ما ذكر لك فانـه يقع لأنه من المشهورين نفـع الله بـه . »

ورأيت بمدينة سلا شابا في مسجد منقطـع ، عليـه مـرقعة ، وهـو مستقبل الى القبلة لايكلم أحـدا ولا يحول وجهه عـن القبلة و لا أدري من

١ – كـ : أريد ان أصرف كتابي هذا الى السلطـان .
٢ – بياض في كل المخطـوطـات .
٣ – بياض في كل المخطـوطـات .
٤ – بياض في كـ .

أيـن عيشه ولا أرى وقتا يريد الوضوء . وعجبت منـه و لا وجـدت كيف أكلمه وهذه المدينـة مقر الصالحين .

ورأيت منهم فيها عددا كثـيرا منهم الخطيب الصالح الولي الشهـير المعلم لكتاب الله تعالى أبـو الحسن علي بن أيـوب . لجأ اليه ، وأنا عنده ، رجـل يشكو بوجـع في بطنه يصيح منه . فمسح بيده المباركـة عليه وحرك شفتيه فذهب ألمـه بقدرة الله تعالى وببركته .

ورأيت بها الشيخ الصالح عبد العزيـز الصنهاجـي . قصد زيارتـه السلطـان عبد العزيز المريني وكاشفه بأشياء تعجب منه بسببها . وكان لا يرده في حاجـة و لذلك عظـم التوسل بـه اليه .

ورأيت بها الشيخ القصار (١) ، نفـع الله به ، وهـو معـدود فـي الأوليـاء .

ورأيت فيها ولي الله تعالى الفقيه ابن مصباح آكـراس . وكـان من أقـران ابن عاشر . و لـه عبادة و ورع . وهـو ابـن خالـة أبي الربيـع سليمان الذي قدمت ذكره . ومعنى آكراس أن والده مصباح يقال انه كان يحفظ كراسا في اليوم فلقب بـه . وكـان من كبار الفقهاء بالمغرب واشتغل والده هـذا بالعبادة بعد العلم ، نفـع الله بـه .

ورأيت الحاج عبد الغني ، نفع الله بـه . وله زاوية بمقربة من الجامع الأعظـم يأوي اليهـا الأخيار المنقطعون للعبادة . وهـو واقف في خدمتهـم ، نفـع الله بـه و بهـم . دخلت زاويته وأنزلني في بيت كتبه وناولني مفتـاح خـزانتها . فتمتعت بدعـائه ولقائه . وقصده مـرة وزير المغرب عمر بن عبد الله بـن علي البياني في حـاجة . فأبى أن يقضيهـا . وسمع من الوزيـر ما يكـره بسببها . فخـرج عنه وهو يقول : « اللهم أرحنـا منه . » و كـرر ذلك وسمع دعـاؤه فقتل الوزير بعد أيام . و تعجب الناس من ذلك .

وخرجت الى ساحل البحـر فوجدت على البحـر أخيارا ، قوتهـم

---

١ - را : القسار ؛ ف ، ق : النسار .

من صيد الحوت . و على الجملة فهذه المدينة أولى بالمريـد بالمغرب من غيرها عمرها الله بالخير والبركـة .

ورأيت منهم رجلا مجهولا ببلد صفرو من حـوز مدينة فـاس . وسبب رؤيتـه أني دخلت جامـع هذا البلد ، على عادتي ، في البحث على الفضلاء وذلك في غير وقت الصلاة . فلم أجـد فيه أحـدا . ففتحت باب بيت صغير في قبلته ودخلت اليه فوجدت فيه رجـلا نحيف البدن جـدا ، فسلمت عليه ، فـرد علي السلام . فسألته عـن الحال فلم يجبني ، فكـررت عليه مـن أيـن ورد فسكت عني . فجلست أنظر اليه ساعـة و أدركتني منه عبرة . ثـم طلبته في الدعـاء ولـم أسمعه منه و لا أدري هل دعـا لي في نفسه أم لا . فخرجت وفي نفسي شـيء . و اذا بجمـاعـة من الفقهاء الواردين . فسألوني مـن أيـن . فـأخبرتهم وأعلمتهم بالرجل . فقال أحدهم : « هـذا مبارك ارجـع معنـا بفضلك اليه . فدخلنا على الرجل فما سمعوا منه الا رد السلام فبكى أحدهم بـين يديـه ، فنظر اليه وسكت . فجلسنا ساعة كل واحـد منا يذكر الله تعالى ثـم خرجنا فقلت : « ولعـل أن نعطي له مايستعـين بـه . » فوافقوني على ذلك وأخـرجنا دراهم كثيرة ورجعت أنا بها وأعلمته بذلك . فلـم يكلمني . فوضعتها بجانبه وسلمت عليه وانصرفت وسافرت عـن البلد المذكـور . فلمـا قضينا سفرنا و رجعنا على طريقنا الى صفرو سألت عنه شيخ البلد فقال لي : « غـاب عنا وما علمنا أمـر ذلك الرجـل ولا سمعنا له كلاما قط الا رد السلام . واذا قـرب له الطعـام تارة يـأكـل منه اليسير وتارة يرده . وهـو لا يعرفه كل الناس . » ثـم قال لنا : « وهل رأيتموه ؟ » قلنا له . « نعم . » قال لنا « أنتم الذين أعطيتموه الدراهـم ؟ » قلنا : « نعـم » قال : « وجدنا دراهمكم بعد سفره مطروحة هنالك وتراهـا وقفناها عند امـام الجـامـع حتى يرى ما يتصرف فيه » . فعلمنـا حينئـذ ولايته ، نفـع الله بـه .

ورأيت منهم بصنهاجة آزمور من بني تامدد (١) الشيخ الصالح أبا محمد عبد الواحد الصنهاجي ، و زوجته الحرة الصالحة فاطمة . وتبركت بها وحصلت لي الغنيمة التامة بدعائها (٢) . أخبرني بعض صدور هذا الكتاب قال لي : « خطرت على صنهاجة في فصل العنب وأنا أسير بين كرمها وهم يجنون عنبها فقلت في نفسي : ما أبخلهم ! هلا عرض علي أحد منهم ! وسرت واذا بشيخ ينادي : قف ! [فوقفت] (٣) فناولني عنقودا عظيما فيه حب يقرب من الليم . فقال لي : « خذ هذا و لاتنسب صنهاجة الى البخل . » فعجبت من ذلك وسألت عن الرجل فقيل لي : « هذا الشيخ عبد الواحد . » وقال لي بعض الفقهاء : « ما هو الا في بركة زوجته . » ولما أردت لقاءها استأذنته . فبعث معي من كلمها لي فوقفت و أسدلت عليها كساء ورحبت بي وأخذت في أدعية عظيمة يقصر عنها من يسردها من كتاب . وتكاثرت الناس علينا عند سماعهم بخروجها الي ، كلهم يسمعون دعاءها . وخطرت على بئر في وسط الطريق بمقربة من دارهم فقيل لي : « هذا البئر من حفر الشيخ عبد الواحد وزوجته وتسويتهما ولا ثالث معهما وخرجا عنه للمسلمين نفع الله بهما بمنه . »

ورأيت منهم بالمغرب الأقصى في طرف سكسوية من جبال درن بموضع يقال له القاهرة [الحرة] (٤) الصالحة عزيزة السكسوية وتبركت بها وجلست معها وهي متوجهة في صلح بين فئتين عظيمتين . و لها أتباع من الرجال وأتباع من النساء . و كل طائفة اشتغلت بالمجاهدة والعبادة في جهة ما يخصها ويضرب لها قيطون بالوسط بمقربة من طائفة النساء

---

١ – كـ : تامرد .
٢ – وفي را وكـ : العناية الصالحة بسبب دعائها .
٣ – زيد ما بين منعقفين عن ف و ق .
٤ – كـ : سقط ما بين منعقفين .

ولا يتحـرك أحـد الا عـن أمرهـا و اذا جلست للناس تلقى عليها كساء لا تترك فيها من أين تنظر الى أحد (١) وهـي فصيحـة جـدا في أجـوبتهـا و أوامـرها و وعظها . ورأيت الناس يتزاحمون عليها . ومـا رأيت ألـين من كلامها في السؤال عـن الحال . و لها كرامات مشهورة . ركب اليهـا الرئيس الشهير صاحب مراكش عـامر (٢) بـن محمد الهنتاتي ، و جلس معها كثيرا وقـال لي ، بعد أن انفصل عنها : « يا فقيه هـذا هـو العجب ، تبادرني بالجواب عما يخطر في نفسي وما قـدرت أن أراجعها في كل ما طلبت منـي . و مـا رأيت أنفذ من حجتها فيما تحتج علي بـه في الـذي يتـوقف فيـه . » وكـان عامر بن محمد من الأذكياء الفصحاء الذين لايقهرون بحجة . و هـو من العظمـاء و رؤساء الدنيا كلامهم في ذلك حجـة . و كـان فـي جيش صحيح يزيد على ستة آلاف . و أقـام حركة بمال جزيل (٣) . و كان قاصدا لحصار السكسوي [في جبله ليدخل تحت طاعته فأمرته بالـرجـوع وألزمت لـه طاعة السكسوي] (٤) . فـرجع وجـاءه كتـابـه بخـدمتـه وطاعته . و أخبرني بعض الفضلاء أن لها في مقامات الصالحين حالا عظيمـا نفـع الله بهـا .

ورأيت منهم الشيخ الصالح المبـارك أبـا محمد عبد الله الصنهاجي . لـه مقام في الصالحين اكتسبه بخدمتهم وركونه اليهـم وقيامه بحقهـم . سمعت من جملة الفضلاء حكاية سجنه الشهيرة . فلمـا قدمت عليه و قـدم الي الطعـام حبست عن الأكل وقلت له : « يا سيدي تشوقني نفسي الى سماع سجن ابن بطـان لك . » فقـال : « حدث بيني وبين ابن بطـان والي صنهاجـة أمـر فثقفني عليـه أحـد عشر يوما وأطلقني . فخرجت الى زيارة

١ — ك : لا تترك فيها ما ينظر منه اليها .
٢ — ك : عمـر .
٣ — ك : لهـا بال .
٤ — ك : سقط ما بـين منعقفـين .

الصالحين . فأول من رأيت منهم رجل منقطع قال لي عند اقبالي عليه : « كم سجنك ابن بطان ؟ » فقلت له : « أحد عشر يوما . » قال : « أنا أسجنه احدى عشرة سنة ! » فقال لي : « والله ما مرت أيام يسيرة حتى وصل كتاب السلطان أبي الحسن المريني بسجن ابن بطان . فسجن وما ترك حمية و لا رشوة الا أخذ فيها ليخرج من سجنه . وكنت أقول لهم : حتى تكمل المدة التي عينت لي . » قال : « فما خرج من السجن الا بعد احدى عشرة سنة وكانت هذه النكبة سبب حرمتي عند العمال . » ورأيت أنا ابن بطان هذا وهو في غاية التعظيم له والخوف منه .

وذكر لي أيضا هذا المبارك أنه أخذ في حركته الى الحجاز قال لي : « وكان في زاويتي فقير حقير تعرض الي يوما وقال لي : لا تتعب نفسك في الحركة و انما تحرك في العام الثاني وفيه يولد لك ولد اسمه شعيب . » قال : « فلم أقبل ذلك منه وتحركت فعاقني أمر ورجعت بسببه وشرقت في العام الثاني وتركت الزوجة حاملا . فلما رجعت وجدت في الدار ولدا تزايد بعدي . فقلت لهم : ما اسمه ؟ فقالوا لي : شعيب . و دعاه حينئذ وقال لي : هذا هو . » و أخبرني هذا الشيخ المبارك بكثير مما شاهده من ذلك نفع الله به وبأمثاله . و أخبرني بعض أصحابنا الفقهاء أنه كان عنده ولد مريض بالاسهال أعيي الأطباء أمره . قال : « فدخلت الى الدار فوجدت أمه متحسرة عليه وأمره في زيادة . فتغيرت نفسي وقلت : ما لي الا الغيبة . و رفعت درهما في فمي فلقيني رجل في زحام السوق فحبسني بيده وقال لي : أعطني ذلك الدرهم نشتر به النبق . فدفعته له ودهشت من مكاشفته حتى غاب عني . ثم قلت في نفسي : النبق والله طيب لصاحب هذه الشكاية . وكان ولدي لا يذوق شيئا بوجه الا الماء خاصة . فاشتريت النبق وأطعمته له فقبله وأكله وكان سبب برئه . »

و لو استقصيت لك ما اطلعت عليه في هذه الجزئيات لطال الكتاب لذلك ولنقتصر على ما ذكرته ونختمه بالتنبيه على الأصل في

تأليف الفقراء وهـو الاخـاء في الله تعالى . و لـولا هـذا القصد لكـان كل انسان منهـم لنفسه . لكـن لمـا كانت الأخـوة درجـة عالية ومقاما شريفا و بهـا يظهر قـوي الايمـان في التخلـق والصبر واحتمال الأذى وصفـاء المعـاملة وقبول العـذر والتماسه والصفح والاحسان الى غير ذلك من السير الحسان (١) حرص الفقهاء عليها . وعلامة حصولها : نفي التمييز في المـال وجميع الأحوال ونفي الافتقار الى الاستيـذان وشأن الأخـوين أن يحـزن كل منهما بحزن أخيه ويفـرح بفرح أخيه وكل ذلك في طاعـة الله سبحان الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلـم : « في الجنة عمود من ياقوتة خضراء عليها غـرف مبنية ، لها أبـواب مفتحة تضيء كمـا يضيء الكـوكب الدري . » فقـال أبـو هريرة : « ومـن يسكنها يا رسول الله ؟ » قـال : « المتحـابـون في الله المتلاقـون في الله . » (٢) وقـال رسول الله صلى الله عليه : « اكثروا من صحبة الصالحـين فـان فيهـم الشفعاء . » فهـذا هـو الأصل في تاليف الفقراء . واياك أن تـذم مـن تـرى منهـم فان ذلك سبب لحـرمانك . تذم هـذا وتذم هـذا فيخفـى عليك الأفضل فـاذا أحسنت ظنك بهذا و وقرت واعتقدت هذا وقع بيدك الأكمل . والدين النصيحة والمؤمن من للمؤمن كالبنيان المرصوص و سلامة الصدور رأس العبـادة وأساسهـا والتخلق بالأخـلاق الجميلة نجاحهـا والتواضع عزهـا وجمالها ؛ والتنافس في الظهور خللها و فسادهـا ؛ والمبتدع ضال والتفـرغ لغير الله ضـلال . وقد ورد علي سؤال من جهة بعض الطلبة مقتضاه أن يسأل عن شهادة طائفة من الفقراء عينهـا بانتسابهـا الى رجل . فـأجبته بعد الحمـد لله « مـن استقام بطريقة وثبتت عدالته جـازت شهادته مـن أي طـائفـة كـان مـن الفقراء والله أعلـم . ولا يظن ظـان أني طولت هنا حتى خرجت عن الغرض

---

١ – الأخـلاق الحسان .

٢ – راجع التشوف ص ٢٢ .

الذي كنت قصدتــه أولا . فقد احتوى هــذا المحل على أشياء شأنها أن تميل النفس الى السؤال عنها مــع الاشارة الى آداب حسنة وسير قوم مستحسنة.
ولنرجــع الى ما كــان قد جــرى القلم عنه (١) والاعــانة بالله تعــالى ولله در القــائــل :

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ أَوْ كَيْفَ أَوْ مَتَى
يُقَــدَّرُ مَــا لَا بُــدَّ أَنْ سَيَكُونُ (٢)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو محمد عبد الله بن ماكسن (٣) الصنهاجي وهــو الذي حدث عنه الحكــايــة الغريبة قال : « كان الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه ، في مجلس اقــرائــه. فجــاء رجــل ليعترض عليه . فــأراد القارىء أن يقــرأ فمنعه الشيخ أبــو مدين من القــراءة وقال له : اسكت ! ثــم التفت الى الرجل وقــال له : لم أتيت ؟ قال : أتيت لأقتبس من أنــوارك . فقال لــه الشيخ : مــا في كمك ؟ فقــال لــه الرجــل : مصحفــا . فقــال لــه أبــو مــديــن : أخــرجه وافتحه واقــرأ أول سطر منــه فاذا فيه : « ٱلَّــذِينَ كَــذَّبُــوا شُعَيْبــاً ...... كَانُوا هُــمُ ٱلْخَــاسِــرِيــنَ . » (٤) فقــال لــه أبــو مــدين : أمــا يكفيك هــذا ؟ »

يَا مَنْ تَوَقَّفَ جَهْلاً فِــي كَــرَامَتِهِمْ
حَقِّقْ وَ صَدِّقْ فَــإِنَّ ٱلقَوْمَ قَــدْ صَدَقُــوا
لَا يَسْتَــوِي مُتَــأَنٍّ فِــي بِطَالَتِــهِ
وَ حَازِمٌ نَحْوَ بَــابِ ٱلْقُرْبِ مُنْطَلِقُ (٥)

---

١ — كـ : الى ما نحن بصدده .
٢ — مــن الطــويل .
٣ — ف ، ق : ماكس ، وفي را و كـ : مــاكسن . راجــع التشــوف ، ص ٣٢٣ .
٤ — سورة الأعــراف : ٩٢ .
٥ — من البسيط . راجــع التشوف ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

و مــن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الحرة الصالحــة فاطمه الأندلسية (١) . قال أبــو عبد الله محمد بــن أحمد الزناتــي : « بت عند أبي عبد الله ابن جميل القصري المعلم وبات معنا الشيخ الصالح أبــو عبد الله التاودي و أبو زكــرياء السائح . فذكــرنا بعد صــلاتنا في الليل طيب حــوت القصر . فغــاب عنا أبــو عبد الله المعلم ساعة ثــم قــدم علينا و معــه حــوت . وكان بيننا وبــين البركة ثمانية عشر ميلا . فتعجبنا مــن ذلك . فلما صلينا الصبح ذهبنا الى زيارة فاطمة الأندلسية فوجدنــاهــا في صلاة الضحى . فلما سلمت من الصلاة قالت : « لاتنكروا براهين الصالحين فانها حق وسأحدثكم بما رأيت . ذهبت أنا والفقيه ابــن صالح مــن القصر الى مدينة فاس برسم زيارة الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، فبتنــا معه في سماع كان عنده . فلما طلع الفجر دخــل علينا رجل عليه عباءة ففــرح بــه الشيخ أبــو مدين ، رضي الله عنه وقــال للحاضرين : هــذا أخ مــن اخــواني في الله تعالى صلى البارحــة العشاء بمكة وسرى ليلته فطلــع عليه الفجــر عنــدنا بمدينة فــاس . » قالت : « فصلى معنــا الصبح وذبــح له الشيخ أبــو مدين كبشا لضيافــة . . »

يَبُوحُ بِسِرِّ ٱلْحَقِّ صَائِبُ مَنْطِقِـي
وَكُلُّ إِنَـاءٍ بِٱلَّـذِي فِيـهِ يَـرْشَحُ
وَ لَيْسَ جَنَـابُ ٱلْقُـدْسِ إِلَّا لِأَهْلِـهِ
وَ مَا كُلُّ إِنْسَانٍ بِـوَادِيـهِ يَسْـرَحُ (٢)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو محمد عبد الله الصنهاجي عرف بالزرهوني (٣) . كان من أهل الفضل والعلم

---

١ - راجــع التشوف ، ص ٣٣١ .
٢ - من الطــويل ، راجــع التشوف ، ص ٣٣٧ .
٣ - راجــع التشوف ، ص ٤٤٢ .

والصلاح وشكا اليه بعض أصحابنا أنه أَشْغَلَهُ ذكر الموت عند ارادة النوم عن الراحة التي يستعين بها على العبادة فقال له : « يكفي الانسان ذكر الموت عند النوم . »

تَنَامُ وَلَمْ تَنَمْ عَنْكَ ٱلْمَنَايَا
تَنَبَّهْ لِلْمَنِيَّةِ يَا نَؤُومُ
سَلِ ٱلْأَيَّامَ عَنْ أُمَمٍ تَقَضَّتْ
سَتُخْبِرُكَ ٱلْمَعَالِمُ وَٱلرُّسُومُ
تَرُومُ ٱلْخُلْدَ فِي دَارِ ٱلرَّزَايَا
وَكَمْ قَدْ رَامَ غَيْرُكَ مَا تَرُومُ
لِأَمْرٍ مَا تَصَرَّمَتِ ٱللَّيَالِي
لِأَمْرٍ مَا تَقَلَّبَتِ ٱلنُّجُومُ (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الفقيه العالم الصالح أبو عبد الله محمد بن حمادو الصنهاجي من قلعة بني حماد . ذكر في فهرسته أنه لقي الشيخ أبا مدين ، رضي الله عنه ، و قرأ عليه كتاب المقصد الأسنى في شرح اسماء الله الحسنى من فاتحته الى خاتمته تفقه بداره ببجاية سنة احدى وثمانين وخمسمائة قال : « وقيدت كلامه عليه أول يوم من غير أن أعلم أحدا . فلما كان في اليوم الثاني قال لنا الشيخ : لا أريد أن تقيد عني شيئا مما أقوله في هذا الكتاب . » وكاشفنا بذلك .

وابن حمادو هذا يتصل بسندي لكلام الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه، و روايتي له . فاني رويته عن شيخنا الفقيه الخطيب القاضي العدل الحاج المرحوم أبي علي حسين بن خلف الله بن باديس من بيتات بلدنا وممن روينا عنه الحديث وغيره . وكانت وفاته ، رحمه الله ، و هو قائم على خطة القضاء

---

١ – من الوافر .

بقسنطينة ، عام أربعة وثمانين و سبعمائة . و ولد في غالب ظني عام سبعة وسبعمائة ؛ عن الشيخ الفقيه الخطيب أبي محمد عبد الله ابن برطله . ولقي ابن عات (١) وأبا موسى الجزولي النحوي وغيرهما وله سلف في العلم . وكانت وفاته بتونس سنة احدى وستين وستمائة . ولقيه القاضي أبو اسحاق بن عبد الرفيع وأخذ عنه بعد وروده من الحج سنة ثمان وعشرين وستمائة ؛ عن ابي مدين رضي الله عنه .

وَ لِـي مَذْهَبٌ فِـي لَفْظِهِ وَ طَرِيقَـةٌ
مَسَالِكُهَا فِي ٱلْحُبِّ لاَ تُشْبِهُ ٱلطُّرْقَا (٢)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح بلال وكان مختصا بخدمته سالكا على طريقته . وسكن بعده عباد تلمسان . وبه يتصل سندي في لبس الخرقة فاني رويتها حين ألبسها ألبسني اياها بيده المباركة الشيخ الصالح أبو موسى القروي : ألبسني بيده الخطيب المحدث أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح المرحوم أبي العباس أحمد بن مرزوق التلمساني ، وقد أدركته وسمعت عليه بعض البخاري الا أني لم آخذ عليه لبس الخرقة . قال : ألبسني والدي بمكة . قال . ألبسني بلال خديم الشيخ أبي مدين . قال : ألبسني أبو مدين . قال : ألبسني أبو الحسن بن حرزهم . قال : ألبسني القاضي أبو بكر بن العربي . قال : ألبسني أبو حامد الغزالي . قال : البسني امام الحرمين أبو المعالي . قال : ألبسني أبو طالب المكي . قال : ألبسني الجنيد . قال : البسني سري السقطي . قال : ألبسني معروف الكرخي . قال : ألبسني داود الطائي . قال ألبسني حبيب العجمي . قال : ألبسني الحسن البصري . قال : ألبسني علي بن أبي طالب . قال : ألبسني رسول الله ،

١ – ق : ابن عتاب .
٢ – من الطويل .

صلى الله عليه وسلم . وهكذا حضرت لجدي لـلأم يوسف بـن يعقـوب يذكر هـذا السند حين يكسي الخرقـة لمن يرغب ذلك منه الا أن بينه و بـين أبي مدين رجلـين والده وابن عـوف كما ذكرناه قبل هذا .

ولقي جدي هذا أبا العباس بن مرزوق تلميـذ بلال وعـاشره في داره بتلمسان مدة وكان عند أبي العباس بـن مرزوق عكاز الشيخ أبي مديـن واتحف جدي منه بجزء ؛ و رأى له بركة عظيمة . ويغلب على ظني أنـه كانت عند أبي العباس بن مرزوق المـرقعة التي نزعت عـن الشيخ بعد وفـاتـه والله أعلـم .

لِلصَّـالِحِـيـنَ مَنَـاقِبٌ مَـأْثُـورَةٌ . يَجْلُـو مَـآثِـرَهَا ٱلطَّـرِيـقُ ٱلأَوْفَـقُ

شَاعَتْ بِـأَلْسِنَـةِ ٱلثِّقَـاتِ وَ كُلُّهُمْ مُتَحَقِّقٌ فِيمَـا رَوَاهُ مُحَقِّـقُ (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصـالـح أبو عبد الله البوني (٢) . وكان من الأخيار . خـرج مرة من بلد العناب الى زيارة الشيخ أبي مدين ببجاية . فقال له الشيخ الصالح الولي الشهير المنقطع الى الله تعالى سيد أهل عصره وقادة أهل مصره امـام الزاهدين و قـدوة المريدين وحامل لواء العارفين أبو مروان الفحصبلي (٣) ، رضي الله عنه ونفع بـه . « سلـم على أبي مدين ، وقل له : ادع لي . » فقال : « فلما وصلت اليه وجدته بثياب حسنة رفيعة برائحة المسك والطيب وهو على حالة تشبه حالة الملوك . فسلمت عليه وجلست بين يديه ثـم قلت لـه : ياسيدي يسلم عليك سيدي أبـو مروان الفحصبلي وقال لك : ادع لي . فقال : نزع الله مـن

---

١ – مـن الكامـل .
٢ – ف ، ق : عبد الله البـونـي .
٣ – ك : اليحصبي ؛ را : الفحصبلي (بضـم الصـاد والبـاء) ؛ ق : الفحصبلي (بضـم البـاء) .

قنبه حب الدنيا . » قال : « فتعجبت من هذه الدعوة وقلت : سبحان الله تركت الشيخ أبا مروان في غاية من الزهد والتقشف والاقلال ونبذ الدنيا جملة وهذا الشيخ فيما رأيت من التمتع ويدعو له بهذه الدعوة فلما قضيت زيارتي ودعته ورجعت الى بونة . فقصدت الشيخ . فوجدته بمرقعة وبيده قصبة صيد الحوت . فسلمت عليه فقال لي : رأيت الشيخ أبا مدين ؟ فقلت له : نعم . وأخبرته بما وقع . فأخذ القصبة وكسرها و رمى بالسنارة وقال : قال الشيخ الحق . قلت : ولا يعرف الفضل لأهل الفضل الا أهل الفضل نفعنا الله بهم وأعاد علينا بركاتهم . »

يَا شَيْخُ هَلْ لَكَ مِنْ مَهْلٍ عَلَى رَجُلٍ
حَمَّلْتَهُ مِنْكَ مَا يُوهِي قُوَى ٱلْجَبَلِ
نَفِسْ فَإِنَّكَ قَدْ أَوْشَكْتَ تَقْتُلُهُ
وَ أَبْقِ فِي ٱلْعُودِ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْبَلَلِ (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم (٢) وهو الذي حدث عنه قال : « سمعت الشيخ أبا مدين يقول : جاءني رجل من الصالحين فقال : رأيت البارحة في النوم جماعة منهم أبو زيد البسطامي ـ قلت : واسم أبي يزيد طيفور ـ مع غيره من المشايخ وهم على منابر من نور وأبو طالب المكي على منبر عال وأبو حامد يقابله على منبر و أبو طالب يسأل أولآئك المتصوفة فيجيبه كل واحد منهم على مبلغ علمه . فقال أبو طالب لأبي حامد : أين غابت هذه العلوم التي يصرفها أبو مدين في دار الدنيا ؟ فقال له أبو حامد : هو ذاك عن يمينك فاسأله . فقال له أبو طالب : يا أبا مدين أخبرني عن سر حياتك . فقال : بسر حياته ظهرت حياتي ، وبنور صفاته استنارت

١ - من البسيط .
٢ - راجع التشوف ، ص ٣٢٣ .

صفاتي و بديمومته دامت مملكتي وفي توحيده أفنيت همتي . فسر التوحيد في قـوله : لا اله الا أنا . والوجود بأسره حـرف جـاء لمعنى . فبالمعـانـي ظهرت الحروف و باتصافه اتصف كل موصوف وباسمه ائتلف كل مـألوف ، مصنوعاته له محكمة ومخلوقاته له مسلمة ، لأنه خـالقهـا ومظهرها ، ومنـه مبدؤهـا واليه مرجعها . فهو لوجودك محـرك وهـو الناطق وهو الممسك . ان نظرت بالحقيقة تلاشت الخليقة فالوجـود به قائم و أمـره في مملكتـه دائم وحكمه في خلقه عام كحكم الأرواح في الأجسام (١) ؛ الحواس بـه بانت على اختلاف (٢) ؛ منه اللسان للبيان وهـو مع ذلك لايشغله شأن عن شأن . فقال له أبو طالب : من أين لك هـذا العلم يا أبا مدين ؟ فقال : لمـا أمـدني بسره غـرف وادي من بحـره فامتلأ وجودي نورا وأمدني (٣) غيبة وحضورا و سقاني شرابا طهورا و أذهب عني ضلالا وزورا فغشيت أنـواره أخلاقي فنظرت الباقي بالباقي . » قلت : اذا تأملت كلامـه هـذا مـع كلامه في اليقظة وجدت النفس والمنبـع (٤) واحـدا لاشك في ذلك ، نفع الله بـه وأعاد علينا من بركاته بمنه وفضله .

وَقَـدْ عَنْكَ غِبْنَا ذَلِكَ ٱلْعَـامَ إِنَّنَـا
نَـزَلْنَا عَلَـى بَحْـرٍ وَ سَائِلُـهُ مَعْنَـا
وَشَمْسٌ عَلَـى ٱلْمَعْنَى مَطَالِـعُ أُفْقِهَـا
فَمَغْـرِبُهَا فِينَـا وَ مَشْـرِقُهَا مِنَّـا
وَ مَسَّتْ يَدَانَا جَوْهَـرًا مِنْه رُكِّبَتْ
نُفُـوسٌ لَنَا [قِدْماً] صَفَتْ فَتَجَـوْهَـرْنَـا

١ — وفي التشوف : وحكمه في خلقـه عـام كحكم الأرواح في الأجسام . في مخطوطات أنس الفقير فحكم عوض كحكـم خطـأ والتصـويب عـن التشـوف .
٢ — وفي التشوف : على اختلاف أنـواعها وهو الصواب .
٣ — في التشوف : و أثمـر .
٤ — ف ، ق : المبلـغ .

فَمَا ٱلسِّرُّ وَٱلْمَعْنَى وَ مَا ٱلشَّمْسُ قُلْ لَنَا
وَمَا جَوْهَرُ ٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي عَنْهُ عَبَّرْنَا
حَلَلْنَا وُجُوداً وَ ٱسْمُهُ عِنْدَنَا ٱلْفَضَا
يَضِيقُ بِنَا وسْعًا وَنَحْنُ فَمَا ضِقْنَا
تَرَكْنَا ٱلْبِحَارَ ٱلزَّاخِرَاتِ وَرَاءَنَا
فَمِنْ أَيْنَ يَدْرِي ٱلنَّاسُ أَيْنَ تَوَجَّهْنَا (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الامام العارف بحر الأنوار معدن الأسرار أبو محمد عبد العزيز بن أبي بكر ، رضي الله عنه . دخل خلوته بقصر المنستير و واصل أربعين يوما . فقال امام جامع المهدية : ان مات عبد العزيز فلا يصلى عليه لأنه قتل نفسه . » يعني بالجوع . فبلغ ذلك عبد العزيز فقال : « هو يموت وعبد العزيز يصلي عليه . » فكان كما قال . وسيق له بعد هذه المدة حسو فما استطاع أن يسيغه وقيل له : « كيف انت ؟ . » فقال : « حييت حياة لا أموت بعدها أبدا . » ارتحل الى بجاية برسم لقاء الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، ليكمل تربيته في ستة من الأخيار و هم الشيخ أبو علي النفطي والدهماني وطاهر الحروغي (٢) وابن هداس ومحفوظ بن جعفر وسالم التباسي . فلما وصلوا جعلوا طاهرا الحروغي يحبس حميرهم وكان أصغرهم سنا . فقال أحدهم لخادم الشيخ أبي مدين : « أين الشيخ أبو مدين ؟ » فقال : « الشيخ من داخل المنزل برفع صوته مع الذي حبس البهائم . »

---

١ – من الطويل .
٢ – را ؛ ف : الخدوعي .

ويحكى أنه سيق للشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، كاملة (١) من الطعام الطيب ، و هؤلاء القوم عنده مع غيرهم ؛ فلم يلتفت الحاضرون لذلك الطعام وأعرضوا عنه وزهدوا فيه . فقام الشيخ أبو محمد عبد العزيز ورفع الغطاء و ذاقه ثم رده وبعد عنه . فقال الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه : « عبد العزيز أزهدكم لأنه عرف ما زهد فيه . » وكان يقول : « عبد العزيز سبع النفوس ، والنفطي ذكير النفوس ، وسالم جبل رأس . »
وكان لعبد العزيز هذا تلميذ مبارك و خادم اسمه عبد الله و كان هو خادم الزنبيل أي يطلب لهم القوت . و كان عبد العزيز اذا فهم الجوع عن أصحابه يقول لهم : « الآن يجيء أبوكم عبد الله . » ولذلك يقال له : « أبونا عبد الله . » وكان عبد العزيز أميا وله الكتابة الحسنة والشعر الفائق وكانت بينه وبين الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، مكاتبات ومراسلات . كتب اليه عبد العزيز كتابا بأبيات منها :

شُعَيْبٌ وَلِيُّ ٱللَّهِ سِرُّ عِبَادِهِ
أَبُو مَدْيَنٍ مُغْنِي ٱلْأَنَامِ بِفَخْرِهِ
فَيَا جَنَّةَ ٱلْمَأْوَى وَ يَا عَلَمَ ٱلْهُدَى
وَ يَا نَاشِراً عِلْمَ ٱلْإِلَهِ بِأَمْرِهِ

---

١ — ك : آنية ؛ ك ٢٦٦٦ : مائدة ؛ وفي المخطوطات الاخرى التي راجعناها : كاملة .
وهذه الكلمة اما أن تدل على نوع من الطعام واما أن تدل على اناء أو شيء يشبهه . ويميل الاستاذ محمد الفاسي الى المدلول الاول .
اما الاستاذ فور فهو يظن أن هذا اللفظ معرب عامي : قد اقتبسته الجنود من اللغة الاطالية كاملة = gamella) اذ احتلت العرب صقلية مدة من الزمن تجاوزت قرنا ونصفا و كانت الديار التونسية القاعدة الحربية التي منها يغزو المسلمون صقلية وابن قنفذ من مدينة قسنطينة التي كانت في هذا العصر من أعمال تونس . وقد لحظنا مرارا في هذا النص ان ابن قنفذ لا يكره استعمال صيغ عامية .

حَضَرْتَ وَ لَمْ تَحْضُرْ وَ غِبْتَ وَلَمْ تَغِبْ
وَ مَا كُنْتَ فِي كُلٍّ بِجَانِبِ طُورِهِ
فَنُورُكَ نُورُ ٱللَّهِ يَهْدِي لَـهُ وَ هَلْ
إِلَى أَحَدٍ فِي ٱلنَّاسِ إِطْفَاءُ نُورِهِ (١)

وكتب اليه الشيخ أبو مدين ، رضي الله عنه ، كتابا عن جواب كتاب عبد العزيز اليه ، من فصوله : أما بعد فانه من اتقى الله سبحانه وقاه ؛ ومن توكل عليه حق التوكل كفاه ؛ ومن استعاذ به نجاه ، ومن شكره والاه ؛ و من أقرضه جازاه ؛ و اجعل التقوى عماد قلبك وجلاء بصرك ؛ فانه لاعمل لمن لا نية له و لا أجر لمن لا خشية له . ومن فصوله : ضاق صدري حين أتت المراكب ولم نر لك فيها كتابا . فرأيتك في النوم وأنت تقول لي : ان كنت تريد بسلامك علي الدنيا ، فلا تسلم علي ، و لا نسلم عليك ؛ وان كنت تريد الآخرة فسلامك يبلغني وان كنت لم تكاتبني ، وسلامي يبلغك وان لم أكاتبك . فزال عن قلبي ماكنت أجده من القبض . فالله سبحانه لايقطعك عني يقظة و لا نوما والسلام .

حَدِيثُكُمْ أُنْسُ نَفْسِي لَسْتُ أَتْرُكُهُ
فَإِنَّ قَلْبِي بِكُمْ فِي أَعْظَمِ ٱلشُّغُلِ
لَوْلاَ هُدَاكُمْ لَكَانَ ٱلنَّاسُ فِي عَمَهٍ
لاَ يَهْتَدُونَ إِلَى عِلْمٍ وَلاَ عَمَلِ
لَكُمْ سَجَايَا وَأَخْلاَقٌ مُطَهَّرَةٌ
حُمِدْنَ فِي مِلَّةِ ٱلْإِسْلاَمِ وَ ٱلْمِلَلِ
مَاذَا أَقُولُ وَمَا أَبْقَوْهُ مِنْ سِيَرٍ
حَسْنَاءَ تُغْنِي عَنِ ٱلتَّفْصِيلِ وَٱلْجُمَلِ

---

١ – من الطويل .

لَا تُنْكِرُوا أَنْ يَفُـوقَ ٱلنَّاسَ بَعْضُهُمُ
أَلـــزِّيَـــارَةُ وَٱلْمَسْك ٱلشَّهَـادَةُ لِ (١)
وَٱلْمَرْءُ فِـي قَبْضَةِ ٱلْمِقْدَارِ مِقْـوَدُهُ
يَجْرِي عَلَى مَا جَرَى فِي ٱللَّوْحِ وَٱلْأَزَلِ (٢)

ومن أصحاب الشيخ أبي مديـن ، رضي الله عنه ، أبـو محمد عبـد الخالق التونسي (٣) وهـو الـذي حدث عنه . قال : « أخبرني الشيخ أبو مدين أنـه سمع برجل يسمى موسى وأنه يطير في الهواء ويمشي على الماء . قال : « وكـان رجل يأتيني عند انصداع الفجـر فيسألني عـن مسائل . » قال أبـو مدين : « فـوقع في نفسي ليلة أنـه موسى الذي سمعت به و طال علي الليل في انتظـاره . فلمـا طلع الفجـر سمعت نقـر الباب فخرجت فاذا هـو الرجل الذي يسألني ، فقلت له : أنت موسى ؟ فقال لي : نعـم . ثـم سألني فأجبته وانصرف فجاءنـي يـومـا آخـر و معـه رجـل فقال لـي : صليت أنا وصاحبي هـذا الصبح في بغداد ، و قدمنـا مكـة فوجدناهـم في صلاة الصبح فأعدنا معهم وجلسنا حتى صلينا الظهر . وأتينا بيت المقدس فوجدناهـم في الظهـر فقال صاحبي هذا : نعيد معهم . فقلت : لا . فقال لي : وترانا أعـدنا الصبح بمكة . فقلت له : هكذا كـان شيخـي يفعـل وبـه أمـرني . فاختلفنا وجئنا للسؤال عن هذا . » قال أبـو مدين : « فقلت لهما : أمـا اعادتكم بمكـة فالصلاة بمكـة عين اليقين ، وببغداد علـم اليقـين ؛ وعـين اليقين أولى من علم اليقـين . وأمـا الأخـرى ، بمكة ، أم القـرى . و مـا صلي بالأمهات فلا يعاد في البنات . فقنعا بالجواب وانصرفا . »

---

١ – كـذا في كل المخطـوطـات : في ق : يحيى الزيادة ... وهذا الشطر غـير متـزن ولـم يظهـر لنا معنـاه .
٢ – من البسيط .
٣ – راجع التشوف ، ص ٣٢٥ .

وذكر بعضهم أن موسى هذا هو موسى أبو عمران الهروي وخبره عند الاولياء مشهور في الطيران وغيره .

وَمُنْفَرِدٍ بِٱللَّهِ هَامَ بِحُبِّهِ
فَلَيْسَ لَهُ أُنْسٌ بِشَيْءٍ سِوَى ٱلرَّبِ
وَمَنْ كَانَ فِي دَعْوَى ٱلْمَحَبَّةِ صَادِقًا
تَجَلَّتْ لَهُ ٱلْأَنْوَارُ مِنْ غَيْرِ مَا حُجْبِ (١)

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، الشيخ الصالح أبو الزهر ربيع والد الفقيه أبي محمد عبد الحق بن ربيع الأنصاري البجائي . و ذكر الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن رشيد السبتي عبد الحق هذا في رحلته . وأثنى عليه وقال : « كانت وفاته عام خمسة وسبعين وسبعمائة وكان أبو الزهر كاتبا للعمال ببجاية واستفاد منهم مالا . فرأى ليلة في النوم أن القيامة قد قامت وأنه سيق به الى النار . فسأل عن سبب ذلك . فقيل : بسبب ما اكتسبته من المال . فلما انتبه تصدق بماله كله و تاب الى الله تعالى ولازم العبادة واستقل بالقراءة واحترف بالخياطه . ثم سار يوما الى والدته وأخبرها بضيق حاله . فقالت له « اعرف لأبيك دارا اغتصبت له و هذا رسمها فاطلبها . » فأخذ رسمها و استفتى الفقهاء في الطلب وأذنوا له . فقال : « فقلت في نفسي : قد استفتيت فقهاء الدنيا ولا بد أن أستفتي فقهاء الآخرة . » قال : « فسرت الى الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه . فوجدته في مسجد أبي زكرياء الزواوي بحومة اللولة (٢) من بجاية وسألته ، رضي الله عنه . فقال : استَفْتِ ربك . فسكتّ . ثم قمنا الى الصلاة وكانت صلاة الصبح . فلما كنت في الركعة الثانية عرض علي شبه سنة خفيفة ، ثم سمعت من

١ – من الطويل ، راجع التشوف ، ص ٤١٧
٢ – را ، كـ : اللومة

يقـول : اطلب حقا واجبا ! اطلب حقا واجبـا ! فـأتممت الصلاة مـع الامام وجلست بمجلس الشيخ أبي مدين لاستماع الذكـر . فلمـا انصرف الناس أقبل علي الشيخ أبو مديـن بوجه وقـال لـي : أفتـاك ربك ؟ فقلت لـه : أفتاني يا سيدي . » وهذا من كرامة الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ونفع بـه . وهي أكثر من أن يحصرهـا مجلدات وأعظم بركاته ظهـور ألف شيخ على يـده ولذلك يقال له شيخ المشايخ رضي الله عنه .

مَنْ لَيْسَ يَسْعَى فِـي ٱلْخَـلاَصِ لِنَفْسِهِ
كَانَتْ سِعَايَتُـــــهُ عَلَيْهَـا لاَ لَهَـا
إِنَّ ٱلـذُّنُـوبَ بِتَوْبَـةٍ تُمْحَى كَمَا
يَمْحُو سُجُودُ ٱلسَّهْوِ غَفْلَةَ مَنْ سَهَا(١)

وهذا القدر كاف فيما تيسر لي من ذكر ما قصدت ذكره ليعلـم منـه بعض أخبار الشيخ أبـي مدين ، رضي الله عنه ، الحميدة ومعانيه السديدة ومقـامه الكبير وطريقه الشهير وفضل مـن اتبعه وسلك تفريقه وجمعـه . و لمـا اشتهـر أمـره وشاع في الافاق ذكره سعـي بـه عند خلفـاء بنـي عبد المؤمـن بمراكش فـأمر السلطان بطلوعـه من بجاية الى حضرته وكتب الى والي بجايـة بالوصية عليه أن يحمل خير محمل . فـأخذ الشيخ أبـو مدين ، رضي الله عنه ، في السفر و شق ذلك على كثير من أصحابه وخافـوا أن يكـون وراء ذلك ما يغـير النفـوس . فقـال لهـم ، رضي الله عنـه ، و عنهم : « شعيب شيخ كبير ضعيف لا قوة له للمشي ومنيتـه قـدرت بغـير هـذا المكان ولا بـد من الوصول الى موضع المنيّـة . فقيض الله لـي مـن يحملني الى مكـان الدفن برفق ويسوقني الى مـرام المقادير أحسن سوق . و القـوم لا أراهم ولا يروني . » فطـابت نفوسهـم وذهب عنهم بـأسهـم وارتحل بـه الى أن وصل الى تلمسان . فلما رأى العباد قال لرفقائـه :

---

١ — مـن الكامـل .

« ما يقال لهذا المكان ؟ » فقيل له : « العباد . » فقال : « مليح للرقاد ! » هكذا أخبرني الشيخ المسن الصالح العدل أبو عبد الله محمد البجائي من عدول تلمسان . وبها حدثني سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة . وقال بعضهم انه قال : « لابأس بالنوم في هذا المكان ! » وقال بعضهم انه توفي بيسر وهو واد قريب من تلمسان و حمل الى العباد فاتفقت هناك منيته وشرفت تلك البقعة بتربته وهذا خاتمة كراماته ، رضي الله عنه .

قال أبو علي الصواف رحمه الله تعالى : لما احتضر الشيخ أبو مدين استحييت أن أقول له : أوصني ، فأتيته بغيري و قلت له : هذا فلان فأوصه فقال : سبحان الله وهل كان عمري كله معكم الا وصية ؟ و أي وصية أبلغ من مشاهدة الحال ؟ » قال أبو علي الصواف « وسمعته عند النزع وهو يقول : الله ! الله ! الله ! حتى رق صوته . » (١) وقال بعضهم : آخر ما سمع منه الحق . و قال بعضهم . آخر ما سمع منه الله الحق . و قال بعضهم : آخر ما سمع منه الله الحي . قلت : و أيا ما كان فهي خاتمة حسنة ومرتبة علية مستحسنة ظهر فيها صدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يموت المرء على ما عاش عليه . »

ذَكَرْتُكَ لاَ أَنِّي نَسِيتُكَ لَمْحَةً
وَ أَهْوَنُ مَا فِي ٱلذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِي
وَ كِدْتُ بِلاَ وَجْدٍ أَمُوتُ مِنَ ٱلْهَوَى
وَ هَاجَ عَلَيَّ ٱلْقَلْبُ بِٱلْخَفَقَانِ
فَلَمَّا رَآنِي ٱلْوَجْدُ أَنَّكَ حَاضِرِي
شَهِدْتُكَ مَوْجُوداً بِكُلِّ مَكَانِ
فَخَاطَبْتُ مَوْجُوداً بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ
وَلاَحَظْتُ مَعْلُوماً بِغَيْرِ عِيَانِ (٢)

---

١ – راجع التشوف ، ص ٣٢١ .
٢ – من الطويل ، راجع التشوف ، ص ٣٢٢ .

و كانت وفاة الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، و رحمه ، في عام أربعة وتسعين وخمسمائة وكان في ذلك اليوم محفل عظيم ومشهد جسيم و في ذلك اليوم تاب الشيخ الصالح أبو علي عمر الحباك التلمساني (١) وخرج عن دنياه وكان يحدث بسبب ذلك فيقول : حضرت جنازة الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، بالعباد ، خارج تلمسان . فما رأيت أعز من الفقراء في ذلك اليوم و لا أذل من الأغنياء في ذلك اليوم ـ قال : قلت في نفسي : اذا كانت هذه حالتهم في الدنيا فما ظنك بها في الآخرة ـ قال : فدفعت أثوابي الى فقير بجنبي وأخذت مرقعته وحلقت رأسي ودخلت على أهلي ، فصاحت زوجتي فقلت لها : ان لم توافقيني فعديني ميتا . ثم غبت عنها مدة . فبينما أنا أمشي في طريق من طرق تلمسان واذا بزوجتي ، و معها خادمها وبنتي على عنق الخادم . فقالت لي نفسي : تنح عن الطريق لئلا تغير قلبها وتجدد عليها ألمها . ثم خالفت نفسي وقهرتها وأخذت خبزة من عند الخباز وتعرضت لزوجتي وقلت : من يشتري لي هذه الخبزة لله تعالى ؟ فلما تحققتني انصرفت مسرعة فرددت الخبزة للخباز . » (٢)

وما زال أبو علي عمر الحباك هذا يترقى الى أن صار من عباد الله الصالحين المشهورين وتوفي ، رحمه الله ، عام ثلاثة عشر وستمائة .

فقلت : و قبر الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه ، بالعباد معهود مشهور ، و حوض للزائرين . رأيت من قبور الأولياء كثيرا من تونس الى مغرب الشمس ومنتهى بلد آسفي فما رأيت أنور من قبره ولا أشرق ولا أظهر من سره وليس الخبر كالعيان . والدعاء عنده مستجاب ، قاله الأعيان . وقد وقفت على ذلك غير ما مرة وأخبرني به من جربه . واختبرته ، زرته مرارا ورأيت له أسرارا فمنها زيارتي له مع أمير المومنين المتوكل

---

١ – التشوف ، ص ٤٥٨ .
٢ – التشوف ،ص ٤٥٩ .

على رب العالمين أبي العباس ابن الأمراء الراشدين وذلك في سنة احدى وستين وسبعمائة في وجهته من المغرب الى بلد قسنطينة وكان مما عاهد الله به عند قبره في ذلك اليوم أن من وصله بأذى فلا يجازيه به . وآخر زياراتي له عند اجتيازي عليه في ارتحالي من المغرب الى بلد قسنطينة وذلك في سنة ست وسبعين وسبعمائة . و في هذه السنة كانت المجاعة العظيمة بالمغرب . و عم الخراب به . فوردت تلمسان والحالة هذه و أقمت بها قرب شهر غير واجد للطريق . وكان وزيرها اذا استشرته في الخروج منعني وتبرأ مني . فكثرت علي النفقة وبلغت المعينة منها فيما لا بد منه لعيالنا ومن تعلق بنا أربعة دنانير ذهبا في صبيحة كل يوم دون المزية العظمى واليد الكبرى التي يجعل علينا من يبيع لنا الطعام . فلجأت الى قبر الشيخ أبي مدين و ركعت هناك ما قدر لي . ثم قرأت جملة من القرآن وأخذت في التسبيح والتهليل في نفسي حتى رق قلبي واجتمع خاطري فاستغفرت الله تعالى وصليت على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ثم قلت : يا سيدي أبا مدين نحن أضيافك وقد نزلنا بجوارك ولنا معك وسيلة عهد سند متصل قريب غير منفصل و الغرض تيسير الانتقال والحفظ في كل الأحوال . اللهم انا نتوسل اليك بأنبيائك و أوليائك ، يسرلنا في ذلك يا قريب ، يا سميع الدعاء يا حي ، يا قيوم يا ذا الجلال والاكرام ! وكررت الدعاء مرارا وصليت على سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم . وحمدت الله وانصرفت فيسر الله تعالى علي فيما طلبته ووقع ما أملته . و ارتحلت بعد أيام يسيرة ورأيت في طريقنا من انقلاب الشر خيرا ماكان يتعجب به من شاهده . و كان أمر الطريق في الخوف والجوع ما مقتضاه أن كل من يقع قدومنا عليه يتعجب في وصولنا سالمين ثم يتأسف علينا عند ارتحالنا حتى أن منهم من يسمعنا ضرب الاكف تحسرا علينا . وانتهى سفرنا على وفق اختيارنا والحمد لله . و ذلك عندنا معهود من كرامات الشيخ أبي مدين ، رضي الله عنه . والدعاء عند قبره مستجاب

وقبره في بيت صغير ؛ بجنبه نحو القبرين ، أحدهما ، في غالب

ظني ، الخديم بـلال و [غلف] (١) على جملتهم بالألواح دفعا لمـن يـريـد الدفن هنا والله أعلـم . وأمـا قبر الشيخ من بـين هـذه القبور فهـو أنك اذا دخلت البيت فارجع على يمينك مستقبلا ، فالذي يقع على يسارك هـو قبره . وهـذا المكان عادة الداخـل أن يتنفـل فيـه . وهـو مكـان مصلى واحد . فـاذا انتقلت فـاستند الى القبلـة بانحـراف وظهرك في ركـن الجـدار ، و سلـم حينئذ على الشيخ من غير تقبيـل وقـل : جـزاك الله خـيرا عـن اجتهـادك في نفسك وفيمن تعلـق بك مـن تلامذتك و رحمك و نفعك بعلمك وطاعتك ونفـع بك . ثـم تقرأ ماتيسر وتذكر ما تيسر ثم تدعو بما شئت و ان تيسرت لك صدقـة للضعفاء والمساكين الملازمـين على الباب فادفعها . فـان كـان أحد يريد الزيارة فخفف والا فاجلس ما شئت الى أي وقت . و مـن الفقراء من يبيت هنـالك . وتحت هـذا البيت وبجـواره قبور كثيرة متزاحمة لالتماس بركـة الشيخ أبي مـديـن رضي الله عنه . وزاويته قـريب منه . و لهـا أوقاف يجرى من ذلك على المنقطعين للعبـادة و بجـواره جـامع للخطبة و مدرسة للعلم . و العباد منظر شريف وبقعـة مباركـة وطئها الصالحون وسكنها المتعبدون و في داخـل المصر رابطـة التونسي نفـع الله بـه ، و هـو أبـو محمد عبد السلام التونسي (٢) وأخذ عـن عمه عبد العزيز (٣) . و عبد العزيـز هـذا من الفقهـاء ومـن أهـل الزهد في الدنيا . و قرأ على الشيخ أبي عمران الفاسي المدفون (٤) بالقيراون، نفـع الله به ، وقرأ أيضا على الشيخ أبي اسحـاق التونسي وغـيرهمـا ودخـل الأندلس واستقـر بـآغمات وهنالك وقفت على قبره سنة ثـلاث وستين وسبعمائـة . و الناس يـزورونـه . [و رأيت بـآغمـات صلحـاء

---

١ — كـ : سقط ما بين منعقفـين ، و في را و ف : مخلف .
٢ — التشوف ، ص ٨٨ .
٣ — التشوف ، ص ٦٨ .
٤ — التشوف ، ص ٦٤.

أخيارا] (١) . و كانت وفاة عبد العزيز التونسي سنة ست وثمانين وأربعمائة . وكان مدرسا بآغمات وانتفع الناس عليه . ولما رأى جملة من تلامذته نالوا بالفقه الخطط ترك التدريس وقال : « صرنا بتعليمنا لهم كبائع السلاح من اللصوص . » فاشتغل بالسياحة ثم رجع الى تعليم علم التصوف مدة . فزار يوما بعض اخوانه . فوجد امرأة على الباب فاستأذن ودخل فوجدهم يأكلون الخبز ويشربون اللبن من القربة . فسألهم عن المرأة . فقالوا له : « هي صاحبة القربة اشترينا منها لبنا بشعير ولم يحضر الاناء فأردنا الشرب من القربة . » فسألهم عن دفع الشعير . فقالوا له « اذا أخرجنا القربة نخرج الشعير . » قال : « سبحان الله ! كرهنا لكم الفقه لما ينال به من مراتب الدنيا فَضَيَّعْتُمْ معرفة الحلال والحرام ! هذا الذي فعلتم ربا لأنه طعام بطعام متأخر . » فعاد الى تدريس الفقه . و كان ابن أخيه عبد السلام الذي بعباد تلمسان ساح معه ونال من بركته . ولم يكن عند عبد السلام من الفقه غير مسائل يسيرة . كان يوما في مجلسه فدخل عليه الأخوان أبو بكر بن مخلوف وأخوه محمد من تلامذة الفقيه أبي الفضل ابن النحوي صاحب القصيدة الجيميّة التي أولها :

إِشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِ ... قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِٱلْبَلَجِ

وَ ظَلاَمُ ٱللَّيْلِ لَهُ سُرُجٌ ... حَتَّى يَغْشَاهُ أَبُو ٱلسُّرُجِ

وَ سَحَابُ ٱلْخَيْرِ لَهَا مَطَرٌ ... فَإِذَا جَاءَ ٱلْإِبَّانُ تَجِي (٢)

١ – را ، ك : سقط ما بين منعقفين .
٢ – من المتدارك .

فـاعترضا على عبد السلام في كلامه ونـاظراه وكـان لهما معرفـة بالمناظرة فدعـا الله تعـالى عليهما فماتـا في جمعـة واحـدة (١) . و أبـو الفضل (٢) المـذكـور أدركـه الشيـخ أبـو الحسن ابـن حرزهـم وهـو صغـير و تبرك بـه ودعا له ونال من بركته ، وحمد الله تعالى ، والده على ذلك وقال لـه : « يا ولدي حدث عندك بدعاء أبي الفضل سر لم أعهده فيك . »

وحكى بعضهم أن أبـا الفضل هـذا أحيا ليلة بسجدة يـدعو فيها على ابـن دبـوس قاضي مدينة فاس وخرج مسافرا ، فخـرج ولد هذا القاضي في جملة من شيعه فقال : « يا ولدي ارجـع تحضر جنازة والدك . » فتعجب ورجـع فسمع الصراخ في الـدار فسأل فقالـوا لـه : « تـوفي والـدك . » وكـان أبـو الفضل هـذا يعتني بالاحيـاء كثـيرا ويقطـع نهـار رمضان بمطـالعته و أفتى لمـن أكـره على اليمين فـي أن الاحيـاء ليس هـو عنده في الزمـان الذي أمـر بجمعه واحـراقـه الا حنث عليه . و انتصر للغزالي فسمع بذلك الغـزالي . فسره وشكره على ذلك . و شرق أخـوه فسمع بـه الغـزالي فهيأ لـه ضيافـة عظيمة يظن أنه أبـو الفضل . و توفي أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف ابن النحـوي بموضع قلعة بني حمـاد سنة ثلاث عشرة وخمسمائـة .

وحدثـوا عن عبد السلام التونسي أنه كـان يعمل بيده في أرضـه . فقصده والي تلمسان للتبرك فنزل عـن فرسه ففرش لـه فتاه بـرنـوسه يجلس عليه . فقال لـه عبد السلام : « ما هـذه الاخلاق ؟ أيـن تجـد غدا برنوسا تجلس عليه ؟ » فاستحيا وقـام وجلس على الأرض . و كانت لعبد السـلام أحـوال عجيبة . وبلـغ الغـاية في الزهـد والتقشف و كـان اذا صلى الجمعة بتلمسان حبسه الناس عند الخروج للدعاء زمـانـا طـويـلا واحدا بعد واحد . و رابطته بالعباد معـروفـة .

---

١ — التشـوف ، ص ٨٩ .
٢ — التشـوف ، ص ٧٢ .

فهـذا ما تيسر لي من ذكـر الشيخ أبي مديـن وذكـر من اجتلبـه الذكـر بسببه . ولنختم كتابي هـذا بنكت تنفـع الفقـير وتعز الحقـير . فمنهـا أن يقـول قـائـل : « كيف يفعـل مـن يـريـد أن يـتـوب ؟ » قلنـا : « التـوبـة الـرجـوع الـى الله تعـالـى . قـال سعيد بـن جبير ، رضـي الله عنـه ، فـي قـولـه تعـالـى : « فَـإِنَّـهُ كَـانَ لِـلأَوَّابِـينَ غَفُـوراً » (١) قال : « هـم الذين يرجعون الى الله . التـوبـة النـدم على الفعـل القبيـح و العـزم ألا يعـود اليه أبـدا . و هـو حـال الاصرار . قال الله تعالى : « وَلَـمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُـوا وَهُـمْ يَعْلَمُونَ » (٢) فـالذي يريد أن يتوب يترك الذنـوب من فعله والخيانة من ضمـيره والمداهنـة من معاملته ويـرد المظـالم على أهلها ويؤدي كـل ما كـان من حق الله تعالى عليـه قـد فـرط فيـه و سواء كـان لله تعـالى أو للعباد . قـال الله : « .. ٱلَّـذِينَ تَـابُـوا وَ أَصْلَحُـوا وَ بَيَّنُـوا فَـأُولآئِكَ أَتُـوبُ عَلَيْهِـمْ وَ أَنَـا ٱلتَّـوَّابُ ٱلـرَّحِيـمُ » (٣) . ثـم يشتغل في صلاح قوتـه لأن القوت من الدين كالرأس من الجسد ؛ ويكثر من الاستغفار ؛ ويتقرب الى الله تعالى بكـل عبادة استطـاع ؛ ويسألـه ، جـل وعـلا ، القبول والتوفيـق و الاهتداء الى سـواء الطريـق .قـال الله تعـالى : « وَمَـن لَّـمْ يَتُبْ فَـأُوْلآئِكَ هُـمُ ٱلظَّـالِمُـونَ » (٤) وقـال رسـول الله صلى الله عليـه وسلـم : يـا أيهـا النـاس تـوبوا فـاني أتوب في اليـوم سبعـين مـرة . »

وينبغي للتائب أن يعمر قلبه دائمـا بقـرب الأجل وحضور المـوت و فـوات الأمـل مـع الله تعالى . و المحـرك لذلك خـوف الوعيد ، و رجاء المـوعـود ، والتحسر على البطـالة واللعب . فـاذا حصلت هـذه الـرتبـة

---

١ — سـورة الاسرار : ٢٥ .
٢ — سورة آل عمـران : ١٣٥ .
٣ — سورة البقـرة : ١٦٠ .
٤ — سورة الحجـرات : ١١ .

للتائب وتحققها و ألفها انتقل الى شكـر الله تعالى دائمـا على ما من بـه عليه وهـداه بفضله اليه ، مـع محاسبة النفس في كل وقت . ويدفـع هواه ويخالف شهـوته لأن على قـدر تمكـن الشهـوة في النفس يقـع الضعف . ولا يرجـع الى الفترة بوجـه ؛ فـانه علامة الخـذلان . ويحارب الشيطان ما استطـاع فلا يقدم على أي فعل كان حتى يفرق فيه بين حقـه و باطله . وهـذا الورع الكامل . فـاذا حصلت هـذه الرتبة الثانية ، وعلامة حصولها مشاهـدة القلب سطوة (١) الرب ، انتقل الى رتبة ثالثة وهي الزهـد فـي الدنيـا لأن آخـر درجـة من الورع أول درجـة من الزهد .

والزهد ميل النفوس الى ما دعا الله سبحانه اليـه و الانقطـاع الى خدمته بنسيان ما يقع بـه طباعهـا ، وتفسده استراحـة النفس وميلهـا الى رخص الفقهـاء . وقد سئل بعضهـم عـن الزهد . فقال : هـو تـرك الحـرام . فـاذا حصلت هـذه الرتبة الثالثة رجي القبـول فـي الله تعالى . والفضل بيـد الله سبحـانه ، يؤتيه من يشاء .

فان قلت : هـذه جملة كلية واشارات علية و مراتب سنية ولا خفـاء أنـه طريق القصد الى الله تعالى ، لكـن قـرب لي ما يفعلـه المخلط اذا تـاب ، قلنـا : نعـم أول ما يفعلـه ما صدرت بـه هـذه الخاتمة وهـي الرتبة الأولى . ثـم ان كانت عليـه التباعـات المالية فيـرد المعينـات على أربابها المعلومـين ، و ان اختلط المـأخـوذ و تنوع فيقـع الحصاص كالمفلس وان جهـل المالك أو فقـد فيتصدق بـه عنه ويكـون فيـه أن يفعـل ذلك غـيره بـه و قـد يختلف ذلك بحسب حاجته . وهـل يتولى الصدقـة على الضعفـاء بنفسه ؟ فيه خلاف بـين الفقهاء . ولا بد أن يطلب المحاللة فيما اغتل ؛ وليس لـه أن يحبس الشيء المغصوب حتى يحلله صاحبه في غلتـه ان امتنع ، لكن يرغبه ، فـان أبي رفـع أمره الى الحاكـم ويعلمه باباتيـه . فيأمر الحـاكم ان رأى ذلك حسنا بـرجـوع الشيء المغصوب ولانه تباعـة

---

١ — را ، ف ، ق : بسطـوات الـرب .

عليه . فاذا حصل حكم الحاكم كانه حللك ، لأن حكم الحاكم يرفع الخلاف . وهذه من النكت الغريبة . وكل ما استهلكه فعليه قيمته الا ان يكـون مـن المكيلات والمـوزونات فعليه المثل . ويتفقـد نكاحـه هـل بـه شبهة أم لا .

فـان قلت هـذا حكـم من ماله كلـه حـرام ، فما حكـم من امتزج مـاله الحلال بالحرام ؟ قلنـا : يخرج مقـدار الحـرام بالتحري والاحتياط ويطهر الحـلال بالصدقـة .

فان قلت هـذا حكـم من اكتسبه بنفسه ، فما حكم الـوارث كـابـن الغاصب ؟ قلنـا : أمـا المعين فيرده باتفاق وغير المعـين اما أن يعلـم أنـه حـلال أو يعلم أنـه حـرام و امـا أن يجهل الحلال ، فالأول حلال باتفـاق وفي الثاني خلاف معروف في مذهبنـا و الترك أحسن . ورأيت فتيا أشياخنا بالمغـرب بحليته . و الثالث حلال وتركـه من باب الورع .

و من فعل كبار الصالحين كابن القاسم الذي ترك مال أبيه وقـال : « كـان تاجرا ولم يحسن الفقه فربما دخـل عليه الربا . » وكالمحـاسبـي الذي ترك مال أبيـه وقال : « كـان يقـول بالقـدر . » وهكـذا كلـه مـن الـورع . و قـد أكـرى ابن القاسم دابـة للسفـر . فناوله انسان كتابا . فقال له : « لا أحمله ، فاني لم أشترطـه على صاحب الـدابة . » و كـورع أحمد بـن حنبل الذي كان لا يأكـل البطيخ وقال : « لـم يبلغني كيف كان يـأكله رسول الله صلى الله عليه وسلـم . » وكـان الشيخ أبـو مديـن ، رضي الله عنـه ، لايـأكـل النبات الذي كان يقال له بقل الهوم (١) لذكراسم الكفـر عليه .

---

١ – كـذا في ق وفي غيره من المخطـوطـات : بقـل اليهـود ، بقـل السوم ، بقـل الـوهـم ، بقل الـوهـام . جاء في اقـرب الموارد : « هـوم المجوس : شجر شبيه بالياسمين ، فيهـا بعض الحـلاوة والحـدة و أجـود زهرها الأغبر الـذي تعلـوه صفـرة ويكـون حـديثا . و سميت هـوم المجـوس لأن عبدة النـار يستعملونها فـي عبـادتهم و ينسبون لهـا منـافـع عجيبـة .

فـان قلت . فما حكـم التائب في الشيء المغصوب اذا باعـه ؟ قلنا : ان بقيت عينه فـربه بالخيار بـين الامضاء والثمن والنقض . وان فات فقال ابـن القاسم : عليه الأكثر مـن ثلاثـة ، قيمتـه يـوم الغصب أو قيمتـه يـوم البيـع لأنه تعدى أو ثمنـه . فـان قلت : فمـا حكـم ولـد الغـاصب المتعلـق بـأبيـه اذا تاب وأبـوه بالحيـاة ؟ قلت : لا يخلو من وجهـين وهو امـا أن يكـون مستقلا ببيته وكسبـه مـن مـال أبيه واما أن يكـون فـي عيـال أبيـه . فـان كـان الأول فحكمه حكـم الغاصب اذا تاب . ويسأل عـن الأرباب . وان كـان الثاني امتنع من الأكـل ومن اللباس وان أدى ذلك الى سخط أبيـه فانـه لا طاعـة لمخلـوق في معصيـة الخالق . وان كـان [في مـال أبيـه شبهـة] (١) امتنـع للورع [وتطلب في البعـد . فان عـزم عليه أبـوه أكـل و صغر اللقم وأطـال المضـغ] (٢) و كذلك عنـد أخيـه و أختـه لأن حقهمـا مـؤكـد .

فـان قلت : هـذا حكم الغاصب التائب . فما حكمه في الطاعـة المالية اذا لـم يتب ؟ قلنا : لايحج بـه بـوجـه ولا يكفـر منه ولا يزكيه بـوجـه لأن الزكـاة اخـراج جـزء منـه و عليـه هـو اخـراجه كلـه . وما أخـذ الساعـي منه وصرفـه للمساكـين جـاز .

فـان قلت : من ماله متشابـه يحج بـه أم لا ؟ قلنا : يتحـرى الطيب ما استطـاع ؛ فـان لم يقدر حـج بالمتشابه ، فـاذا وصل الميقات اجتنبـه من حين يحـرم الى انصرافـه من عمل الحج .

فـان قلت : اذا لـم يخرج الغاصب الزكـاة كما قلتم هل للفقير ان يقبل منه زكـاة الزرع أم لا ؟ قلنا : اذا زرع الزريعـة المغصوبـة على ملكه وجنـاهـا على ملكـه فليصرف بذلك كلـه علـى ربـه . فـان لـم يصرفـه

---

١ — كـ : وان كـان [بياض] امتنـع بالورع .
٢ — كـ : .. بالورع [بياض] وكذلك عند أخيـه .

وأخرج زكـاتـه ففي قبول الفقير لها خلاف . يأخـذها من قلد من قـال ان الزرع للغاصب . وكذلك الحكم اذا اغتصب الأرض وحدها فان غصب الأرض لرجل والزريعة لرجل فلا تحل هذه الزكاة الا على قول من يقول : ان الزرع لمتولي العمل . فان قلت : وهل يجب على المسكين السؤال عن هذا أم لا ؟ قلنا: ان ظهرت عـلامة الغصب سأل و الا فلا . فـان قلت : هـذا حكـم التـائب الـذي في مـاله الفساد بالغصب والظلـم قـد ظهرت قـواعده ، فما حكـم التائب الـذي في ماله الفساد بالمعاوضات المنهي عنهـا في الشرع كالصرف الفاسد وشبهه ؟ قلنا : يرده الأعـراض القائمـة . وكـذلك زيادة الـربـا وشبه ذلك . فـان جهل المـالك تصدق بـه عنه .

و كـل ما باع مما لا يحـل بيعـه كالخمر والعنب لعصره فـان ثمنه مصروف للمساكين ولا يرد على صاحبه .

و في ثمـن جلد الميتة خـلاف هـل يتصدق بـه أم لا ؟

ويتصدق بكـراء الحـرام ككراء الـدار لمن يعتصر فيهـا خمـرا أو يبيعه فيهـا أو يعـدهـا للـزنا ونحـو ذلك .

وأما مـن باع سيفا لقاطـع الطريـق ، فـانه يفسخ البيـع والكراهة شديدة . فـان فات فقد اختلف في الصدقـة بثمنـه .

فـان قلت . هـذا اذا عـرف مقدار الفسـاد وعـرف صاحب المـال فما الحكـم اذا جهـل ذلك ؟ قلنـا : يتحـرى على الاحتياط ويتصدق بـه وكـذلك اذا علمه وجهل صاحبه . و أمـا ان جهـل المقـدار وعلـم المالك فيحتاط معـه .

فـان قلت : هـذا حكـم المبيـع المحسوس قـد ظهـر ؛ فما حكم ما بيع ممـا هـو معنى مـن المعـاني كالغناء والنياحـة ؟ قلنا : حكـم ذلك الصدقـة خاصة ولا ينتفع بـه آخـذه لأنه حـرام ولا يرده على صاحبـه أدبـا لـه .

فان قلت : هذا التائب الذي صفا قوته هل يجب عليـه سؤال أهـل السوق كالجزار أو الخبـاز أم لا ؟ قلنـا : اذا قـامت الشبهـة على طرق

الغصب أو حدوث العقد الفاسد في عين المبيع ، فلا يبتاع منه بوجه ؛ و ان قامت الشبهة في جملة السوق وجب السؤال ؛ وان انتفت الشبهة اشترى من غير سؤال .

فان قلت : اذا ظهر موجب السؤال هل يتعدد أم لا ؟ كما اذا أخبره أنه اشتراه من فلان هل يسأل فلانا أم لا ؟ قلت : هذا لا ينضبط الا بزوال الريبة وسكون النفس (١) بحيث زالت الريبة بسؤال واحد أو بسؤالين قدم على الشراء و الا سأل حتى تزول الريبة . فان قلنا : ظهرت الريبة ؛ فان لم تظهر فلا يسأل ، لان سؤاله أذية وتهمة بالسوء ، و قد يوحش النفوس بذلك و يخاف أيضا من حديث الرياء . و كذلك لايجب السؤال اذا حضر طعام من علم أنه دخل بيده مال حرام ولا يدري هل بقي أم لا .

فان قلت : من ماله كله حرام أو عليه من التباعات ما يستغرق ما بيده من الحلال ، هل للتائب أن يعامله أم لا ؟ قلنا : ينبغي لأهل الورع البعد من ذلك جملة و في مذهبنا في هذه المعاملة أربعة أقوال : ألاول لا تجوز معاملته بوجه ، و سواء كانت بمعاوضة أو بغير معاوضة . فلا يباع ولا تقبل هديته ولا يؤكل طعامه . والقول الثاني ان كانت بمعاوضة بغير نقص من القيمة جازت و الا فلا . والقول الثالث تجوز فيما أفاده من ذلك المال بالارث والهبة و غير ذلك من الوجوه الجائزة دون ما اغتصبه . القول الرابع : المعاملة جائزة بعوض كانت أو بغير عوض . وقال ابن رشد : الخلاف انما هو اذا يئس من أصحاب التباعات أو جهلت أسماؤهم و الا فيتعين القول الأول . فان قلت : ما يأخذ به التائب من هذه الأقوال الأربعة حيث لا ضرورة ولا مخافة عذر ؟ قلنا

١ – را : .. الا بزوال الريبة ويكون النفس بحيث ..؛ ف : .... الا بزوال الريبة ويكون بحيث زالت الريبة ... ؛ كـ : الا بزوال الريبة ويكون النفس بحيث لو زالت الريبة ...

يأخذ بالقول الأول ، و حيث الضرورة أو وجدت المداراة أخذنا بالقول الثاني ، أي يتصدق بقيمة ما أكل أو يعين ما أخذ . و القول الثالث والرابع هما عمدة الفقهاء المشتبهين والمستغرقين . حكى لنا شيخنا الفقيه الشهير أبو الحسن علي الصغير أنه كان مسافرا من فاس . فلقيه بعض الظلمة في طريقه وحلف له بالطلاق ما يتعدى ذلك المكان ولا (١) ينزل الا عنده حرصا على حصول البركة . قال : فوقف الشيخ ساعة ثم قال لأصحابه : انزلوا على بركة الله تعالى أخذا بالقول الرابع (٢) قلت : وهو لابن مزين وغيره .

فان قلت : هذا حكم من يشتري منه ، فما حكم من يبيع له بالدراهم (٣) والسلعة عند بائعها ؟ قلنا : يصرفه جهد الاستطاعة وهذا شأن أهل الفضل والصلاح . و قد رأيت بعض الفضلاء يتردد في البقل المزبل من بول دواب الظلمة وهل يؤكل أم لا . و هذه كانت سير الصالحين فان باع له فالثمن مكروه و ما اشتراه الظالم بثمن الى أجل أو الى غير أجل الا أنه يدفعه فأكل ذلك الشيء حلال على الصحيح .

فان قلت هذه المعاملة التالية قد تقررت قواعدها فما الجواب في معاملة التائب البدنية مع جبابرة الدنيا ؟ قلنا : الاعتزال للتائب أولى وأسلم حتى لايرى ظالما بوجه . فان وقع اللقاء فالسكوت أسلم وان دعي الى جواب احتاط فيه وان طلب في دعاء دعا بصلاح الحال مع الله تعالى وطول العمر في الطاعة وبالتوفيق للخير و ما يناسب هذا ولا يدعو للظالم بطول البقاء المطلق من غير قيد . قال رسول الله ، صلى

١ – ك : وحلف له بالطلاق الا ينزل الا عنده .
٢ – ك : انزلوا على بركة الله [بياض] قلت :وهو ....
٣ – ك : ... بالدراهم [بياض] هذا شأن أهل الفضل والصلاح [بياض] وهذه سير الصالحين فان باع له بالثمن [بياض] بثمن الى أجل أو الى غير أجل الا أنه [بياض] فأكل ذلك الشيء حلال ...

الله عليه وسلم : من دعا لظالم بطول العمر أو البقاء فقد أحب ان يعصى الله في أرضه . ولا يغتر التائب بفعل أفاضل الفقهاء لأنهم يعلمون كيف يدخلون و يخرجون بالكلام وغيره كتورياتهم بقولهم المسموع عنك معروف أو بدعائهم مثل : الله يحفظ أحوالك . والمراد : الحظ .

وقد توفي بعض الظلمة بتونس . ففزعت غلمانه الى المؤذن محرز ، نفع الله به . فلما أعلموه وقف ورفع صوته وقال : « مات و أرضاكم بذلك ولا شيء فيه . »

فان قلت : من ترجى بركته اذا رفعت له مظلمة هل يدعو على فاعلها أم لا ؟ قلنا : ان كان من العمال الفجار فلا بأس بالدعاء عليه سرا أو جهرا ، الا أن يتقي فيكتم ذلك . و ان كان السلطان هو الجائر فلا يدعو عليه هو ولا المظلوم بوجه لقوله صلى الله عليه وسلم : « ان عدل فاشكروا ، و ان جار فاصبروا . » [وقال عليه الصلاة والسلام : « أدوا الذي عليكم ويسألهم الله الذي عليهم . » ويعني ، بالذي علينا الطاعة] (١) وقال ، عليه السلام : « من دعا على السلطان سلطه الله عليه . » وقيل لبعض الصالحين : « ان سلطاننا يجور علينا . » فقال : « أخاف أن تفتقدوه و يأتي من هو أشد منه في الجور فيصرف الأمر لله تعالى . »

فان قلت : هذه معاملة التائب المالية والبدنية قد ظهرت فما يفعله في خاصة (٢) نفسه ؟ قلنا : يجتهد في حصول المرتبة الأولى التي أشرنا اليها بعد اصلاح عقيدته بيقينه ان الله تعالى واحد في ملكه ، لا شريك له ، قديم لا أول له ، دائم لا آخر له ، حي ، عالم ، قادر ، قاهر ، سميع ، بصير ، متكلم ، مريد ، فعال لما يريد ، منزه

---

١ – ك : سقط ما بين منعقفين .
٢ – را ، ك : حالة .

عن التغير والزوال ، لا يحويه مكان ولا يشغله شأن ، كل مخلوق مقهور بقدرته ، لاتتحرك ذرة في الأرض و لا في السماء الا باذنه ، خالق لكل موجود ، غني عن العباد ، لا تشبه ذا ته الذوات ، ولا صفاته الصفات ، مبدىء ، معيد ، فرد ، صمد ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، (١) بعث الرسل لخلقه اقامة للحجة عليهم ، وختم الرسالة بسيد الأولين والآخرين محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ونسخ بشريعته جميع الشرائع ، و ألزم عباده تصديق نبيه ، عليه السلام ، في كل ما اخبر من أمور الدنيا والآخرة . وأول أحوالها سؤال الملكين في القبر [ولا يقبل ايمان من لم يعتقد ذلك] (٢) وآخر أحوالها الشفاعة و وجودها من الانبياء والعلماء والصلحاء . (٣)

كمل كتاب ابن الخطيب ، رحمه الله تعالى ، في فضائل الشيخ الصالح الزاهد القطب أبي مدين شعيب وأصحاب الولاية ، نفع الله بهم ، والحمد لله كثيرا والصلاة والتسليم على سيد الأولين والآخرين مولانا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، و على آله وأصحابه وأزواجه ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (٤) .

---

١ – سورة الاخلاص : ٣ ، ٤ .

٢ – كـ : سقط ما بين منعقفين .

٣ – كـ : ... والعلماء والصلحاء ولا يقبل من لم يعتقد ذلك وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .

٤ – را ، كـ : انتهى أنس الفقير لابن قنفذ رحمه الله .

بيان الكتب المشار اليها في التعليقات

- **تحفة الزائر ببعض مناقب سيدي الحاج احمد بن عاشر** غير مطبوع .

- **تعطير الانفاس في التعريف بالشيخ ابي العباس** لمحمد بن محمد المدعو بابن المؤقت ، طبعة حجرية ، فاس 1336/1918 .

- **التشوف الى رجال التصوف** ، طبعة الرباط ، أ. فور ، 1378/1958 لابي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي عرف بابن الزيات .

- **جذوة الاقتباس في من حل من الاعلام مدينة فاس** ، طبعة فاس ، سنة 1309/1892 ، لاحمد بن محمد بن احمد المعروف بابن القاضي

- **مجلة هسبيريس** ، الجزء 31 ، سنة 1363/1944 والجزء 43 ، سنة 1376/1956.

- **فهرس المخطوطات العربية** ، اعتنى بتأليفه ي. س. علوش وعبد الله الرجراجي ، الجزء الثاني ، الرباط ، 1378/1958 .

الفهـــارس

الفهــرس الأول في ذكــر اسمــاء الــرجــال والنســاء .

الفهــرس الثــاني في ذكــر اسمــاء الامــاكــن .

الفهــرس الثــالث في ذكــر الامــم والقبــائــل والعشــائــر .

الفهــرس الــرابــع في اسمــاء الكتب المــذكــورة .

الفهــرس الخــامس لــلأبيــات .

الفهرس الأول

في ذكر أسماء الرجال والنساء

- ا -

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

— ذ —

— ر —

— ز —

— ط —

– ك –

– ل –

– م –

- ن -

- ص -

- ع -

— س —

— ش —

— هـ —

— ي —

الفهـرس الثـانـي

فـي ذكـر أسمـاء الأمـاكن

الفهـرس الثـالث

فـي ذكـر الأمـم والقبـائـل والعشـائـر

الفهرس الرابع

في اسماء الكتب المذكورة

الفهرس الخامس

للأبيات

UNIVERSITÉ MOHAMMED V

CENTRE UNIVERSITAIRE DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

PUBLICATIONS DE LA FACULTÉ DES LETTRES

RIḤLĀT II — ZIYARĀT 1

ABŪ-L-ᶜABBĀS AḤMAD B. ḤASAN B. ᶜALĪ B. AL-ḪAṬĪB

IBN QUNFUḎ

(† 810 = 1407, 1408)

UNS AL-FAQĪR WA ᶜIZZ AL-ḤAQĪR

ENQUÊTE SUR LA VIE, LES MAÎTRES ET LES DISCIPLES DE SĪDĪ BŪ MADIAN ET VOYAGES À TRAVERS LE MAROC

CONTRIBUTION À L'ÉTUDE DE L'HISTOIRE RELIGIEUSE DU MAROC

TEXTE ARABE ÉTABLI ET PUBLIÉ

PAR

MOHAMMED EL FASI — ADOLPHE FAURE

EDITIONS TECHNIQUES NORD-AFRICAINES

22, rue du Béarn

RABAT

1965



DÉPÔT LÉGAL : 148/65 — IMPRIMERIE DE L'AGDAL, RABAT

INTRODUCTION

I. L'AUTEUR

Contemporain d'Ibn Khaldoun, Ibn Qunfuḏ est né vers 740/1339-1340, à Constantine, et mort en 810/1407-1408. La plus grande partie de sa vie s'est écoulée à l'époque de la décadence mérinide. Son nom complet est Abū-l-ʿAbbās Aḥmad b. Ḥasan b. ʿAlī Ibn al-Ḫaṭīb al-Qusanṭīnī. On le connaît plus particulièrement sous le nom d'Ibn Qunfuḏ [1].

Il appartient à une famille de lettrés. Son grand-père maternel Yūsuf al-Malārī († 764/1362-1363) était un soufi de l'école d'Abū Madyan. Son père, le ḫaṭīb Ḥasan, fils du ḫaṭīb ʿAlī était un lettré initié au soufisme et qui se réclamait lui aussi de la doctrine du même maître.

L'auteur du *Uns* avait une formation très complète de savant médiéval. Il était juriste, traditionniste, grammairien, logicien, mathématicien, astronome, historien.

Aḥmad Bābā donne, dans son *Nail al-ibtihāj* [2], la liste des maîtres d'Ibn Qunfuḏ. Quatre de ceux-ci sont cités dans le *Uns*. L'un d'eux, le plus célèbre (avec Lisān ed-Dīn Ibn al-Ḫaṭīb), est

---

(1) Sur Ibn Qunfuḏ, sa vie et son œuvre, v. Lévi-Provençal, *Les manuscrits arabes de Rabat*, Paris, 1921, pp. 132-134.

E. Lévi-Provençal renvoie à Aḥmad Bābā, *Nail al-Ibtihāj*, p. 57 ; Ibn al-Qāḍī, *Jaḏwat-al-Iqlibās*, p. 79 ; al-Qādirī, *Našr al-maṯānī*, I, 4 (V. trad. du passage dans *Archives Marocaines*, vol. XXI, Nachr al-Mathâni de Mouhammad al-Qâdiri, Trad. de A. Graulle et P. Maillard, Paris, 1913, p. 11) ; Brockelmann, *Geschichte*, II, p. 241, 6, 3 ; R. Basset, *Recherches bibliographiques sur les sources de la Salouat el-Anfâs*, dans recueil de Mémoires et de Textes publiés en l'honneur du XIVe Congrès des Orientalistes, Alger, 1905, pp. 13-14, nos 20-21.

On pourra également se reporter à Ibn Maryam, *Al-Bustān*, pp. 308-309 (V. la traduction française de F. Provenzali, *El Bostan ou jardin des biographies des saints et savants de Tlemcen*, Alger, 1910, p. 341) ; Ben Cheneb, *La Fārisiya ou les débuts de la dynastie ḥafṣide par Ibn Qonfoḏ de Constantine*, « Hespéris », T. VIII, 1928, 1er trimestre, pp. 37-39 ; H.P.J. Renaud, *Ibn al-Bannā' de Marrakech, ṣûfî et mathématicien* (XIIIe XIVe s. *J.C.*), « Hespéris », T. XXV, 1938, p. 13.

(2) *Nail*, p. 57.

Abū Zaid ᶜAbd er-Raḥmān al-Lujā'ī, quatrième disciple d'Ibn al-Bannā', qui devait lui-même son initiation mystique à Abū Zaid ᶜAbd er-Raḥmān al-Hazmīrī, fondateur de la confrérie des *Ċamātiyūn* (3). Rappelons qu'Ibn al-Bannā' a eu également comme premier disciple al-Abulī, l'un des maîtres d'Ibn Khaldoun. Le grand historien et Ibn Qunfuḏ se rattachent donc, tous les deux, par l'un de leurs maîtres à l'enseignement d'Ibn al-Bannā'. Un autre des maîtres d'Ibn Qunfuḏ est Ibn Marzūq, mort au Caire, auteur d'un commentaire sur la *ᶜUmda fī furūᶜ aš-šāfiᶜīya*.

A l'âge de dix-neuf ans, selon le *Nail* (4), Ibn Qunfuḏ se mit en route vers le Maroc. Il devait y séjourner environ dix-huit ans (5), c'est à cette occasion qu'il entreprit son enquête sur Abū Madyan et ses disciples, allant de ville en ville, sillonnant le pays, comme on le précisera ultérieurement. « J'ai vu quantité de tombeaux de saints, dit-il, de Tunis au Couchant et jusqu'à l'extrême limite de la ville de Safi. » Dans le *Uns* il ne fournit aucun détail sur ses autres activités. On apprend tout à fait incidemment qu'en 769/1367-1368, il était investi des fonctions de cadi, à l'époque où il assistait, dans les Doukkala, à un rassemblement de *fuqarā'*.

En l'année 777 ou 778/1375-1376, jugeant probablement qu'il avait terminé sa mission au Maroc, Ibn Qunfuḏ retourne vers sa terre natale l'Ifriqiya. Il est chargé, à Constantine, de diverses fonctions : ḫaṭīb, muftī, cadi. Il meurt en 809 ou 810/1406-1407.

II. L'OUVRAGE

Ibn Qunfuḏ connaissait bien le *Tašawwuf* ; il le cite et le met très souvent à contribution. On pourra juger à la soixantaine de renvois à cet ouvrage qui figurent dans les notes de cette édition du *Uns* qu'une bonne partie des renseignements relatifs à des personnages qui ont gravité autour d'Abū Madyan ou qui lui doivent leur initiation soufique a été empruntée à l'hagiographe marocain Ce qui prouve que le livre de Tādilī jouissait alors d'une

(3) *Uns*, p. 66.
(4) *Nail*, p. 57.
(5) Pour la durée de ce séjour, v. « Hespéris », T. VIII, année 1928, p. 38.

grande réputation et qu'il était considéré comme une autorité fondamentale.

Toutefois, en rapportant le récit du *Tašawwuf*, Ibn Qunfuḏ l'altère ou l'appauvrit (6). Ainsi, les détails biographiques concernant Abū Madyan qu'on pourra lire dans le *Uns* sont incontestablement démarqués du *Tašawwuf*. Mais ils ont été rétrécis, vidés d'une partie de leur substance. Et cela est très regrettable. On aurait aimé qu'Ibn Qunfuḏ donnât des détails supplémentaires qui vinssent enrichir le texte de Tādilī au lieu de le tronquer ou de le résumer.

Pour le reste, Ibn Qunfuḏ se conduit en enquêteur consciencieux. Il a vu de nombreux personnages et recueilli une grande quantité de témoignages. Au Maroc sa vie se consume en tournées longues et lointaines. Il est allé plusieurs fois à Fès au tombeau d'Abū-l-Ḥasan Ibn Ḥirzihim, à qui reviendrait le mérite d'avoir introduit au Maroc la doctrine soufique d'al-Ġazāli. Son premier pèlerinage au tombeau de ce saint se place en 759/1357-1358, l'année même de son arrivée au Maroc. En 761/1359-1360, en 772/1370-1371, en 776/1374-1375, il est à al-ᶜUbbād ; il se recueille auprès du tombeau d'Abū Madyan.

On peut le suivre dans ses pérégrinations à Salé (763/1361-1362), où il rencontre Ibn ᶜĀšir. Cette même année, il se rend à Marrakech, au tombeau d'Abū-l-ᶜAbbās al-Sabtī, patron des pauvres et des mendiants ; il visite la maison d'Ibn Tumart, chez les Hintāta ; le tombeau d'Abū Moḥammed Ṣāliḥ, fondateur du ribāṭ d'Āsfī, qui fut un haut-lieu de l'islamisation au Maroc ; il va aussi à Āġmāt, où sont enterrés quantité de *ṣāliḥ-s*, dont Abū Isḥāq al-Tūnusī, Abū ᶜAbdallāh al-Hazmīrī, l'un des maîtres d'Ibn al-Bannā'.

Pour ses autres pèlerinages il ne fournit pas de date. On le trouve à Āzemmūr, autre important foyer de soufisme et d'islamisation, auprès du tombeau d'Abū Šuᶜaib Ayyūb ; au ribāṭ de Tīṭ, chez les Banū Āmġār. Bien malgré lui il est empêché d'atteindre le tombeau d'Abū Yaᶜzā ; il pousse jusque chez les Saksāwa

(6) Comparer notamment le texte du *Tašawwuf* se rapportant à Fāṭima al-Andalusīya (331) avec celui du *Uns* concernant la même personne ; la notice biographique n° 251, consacrée à Abū Muḥammad ᶜAbdallāh b. ᶜUṯmān, avec celui du *Uns* (91).

dans le jabal Dern A Fès il pratique très longtemps Abū ʿAbdallāh Muḥammad al-Janātī, continuateur de la tradition ġazalienne du soufisme. Enfin en 769/1367-1368 il participe à un grand rassemblement des confréries marocaines entre Āsfī et Tīṭ.

Le récit de ces voyages, de ces pèlerinages aux tombeaux, de ces visites aux personnages en renom de l'époque constitue la partie originale du *Uns al-faqīr*.

Ce petit livre montre toute l'étendue de l'influence exercée sur le soufisme marocain par le grand saint enterré à al-ʿUbbād. Il procure quelques détails sur les plus anciennes corporations marocaines connues. On voit, par lui, que l'apparition subite et la multiplication des *ṣaliḥ-s*, à l'époque almohade a porté ses fruits ; les grands saints de cette période de l'histoire marocaine sont, en effet, toujours honorés, ils font école et nourrissent la vie spirituelle de l'islam marocain au VIII^e siècle/XIV^e comme ils l'avaient fait au siècle précédent.

On ne sera guère surpris de constater qu'Ibn Mašīš († 625/1227-1228) qu'on donne comme un disciple direct d'Abū Madyan, a totalement échappé à l'attention d'Ibn Qunfuḏ.

En résumé, l'enquête d'Ibn Qunfuḏ, dont la rédaction s'est achevée en 787/1385-1386 à Constantine, se situe chronologiquement après le *Tašawwuf*, rédigé en 617/1220-1221 et le *Maqṣad* rédigé en 711/1311-1312. Ces trois ouvrages se rapportent à une période de l'histoire religieuse du Maroc qui s'étend de la dynastie almohade à celle des Mérinides. Ils ne touchent, bien entendu qu'un aspect limité de la question mais n'en présentent pas moins un intérêt certain du fait de leur ancienneté et de la rareté des sources dans le domaine de l'histoire du Maroc, pour la période pré-maraboutique.

Le *Maqṣad* ayant bénéficié d'une traduction en français et le *Tašawwuf* ayant été édité, nous avons pensé qu'en mettant à la disposition des chercheurs le texte du *Uns al-faqīr* nous complèterions utilement le travail de recherche inauguré autrefois par Michaux-Bellaire et M. Colin.

III. LES MANUSCRITS

Pour établir ce texte nous nous sommes servis de cinq manuscrits.

1° Le premier d'entre eux, répertorié sous le numéro D 524, et qui appartient à la Bibliothèque générale de Rabat, est la plus ancienne copie que nous ayons pu nous procurer. Elle est, selon Lévi-Provençal, du XVIII[e] siècle. Mais nous n'avons pu y lire aucune date.

Elle comprend 21 feuillets de 29, 31 ou 33 lignes, de 26 × 20 cm, tous attaqués et rongés par les souris sur les bords extérieurs. Des parties du texte en ont malheureusement souffert.

L'écriture de ce manuscrit est fine, mais très lisible. Les paragraphes sont indiqués avec soin et les vers, écrits d'abord à l'encre rouge, puis à l'encre noire, se détachent nettement du texte.

Nous l'avons désigné par le sigle را .

2° Monsieur Colin, que nous remercions ici, a bien voulu mettre à notre disposition un second manuscrit qui, bien que s'étant révélé être de la même famille que le précédent, nous a été de la plus grande utilité.

Nous lui avons attribué le sigle ك .

3° Le troisième de ces manuscrits, daté du vendredi 13 ṣafar de l'année 1227/1860-1861, le D 1498 dont le sigle est رب , répertorié au catalogue de MM. Allouche et Regragui (T. II, p. 189), sous le numéro 2232, fait partie du fonds de la Bibliothèque générale de Rabat.

Il est inclus dans un recueil et va du feuillet 12 v° au feuillet 49 v°; dimension : 23 × 18 cm; 25 lignes par feuillet.

Le texte est encadré de deux filets rouges, enveloppés d'un filet bleu.

L'écriture en est fine, penchée vers la droite, peu élégante.

Ce manuscrit est d'une famille différente des deux précédents.

4° Le manuscrit de la Bibliothèque de la Qarawiyine dont nous avons pu avoir une photocopie n'est pas daté. Il est loin d'être aussi ancien que le D 524. Mais avec son écriture ronde, régulière, il présente l'avantage d'être d'une lecture facile et reposante. Il comporte 24 feuillets de 26 × 20 cm. Il est désigné par le sigle ق.

5° Le dernier des cinq manuscrits, que nous avons affecté du sigle ف, appartient à la bibliothèque personnelle de Monsieur Moḥammed el-Fasī, recteur de l'Université de Rabat. C'est une copie fidèle du précédent.

Les numéros 3, 4 et 5 présentent très souvent les mêmes lectures et les mêmes fautes de copiste.

Notre travail était achevé et en cours d'impression, lorsque nous eûmes l'occasion d'avoir en main quatre autres copies du *Uns* ; deux provenant de la bibliothèque de l'ancien pacha de Marrakech, Madani el-Glaoui (n°s 597 et 857) ; et deux autres, de celle d'Abd el-Hayy el-Kattani (n°s 2305 et 2666) mais qui, malheureusement, n'étaient pas plus anciennes que celles sur lesquelles nous nous sommes appuyés pour établir notre texte. Le n° 2305, le seul daté, est de ṣafar 1338/1919-1920.

Les numéros 2666 et 857 se rattachent au groupe ق ، ف ، رب : les deux autres, 597 et 2305, au groupe ك ، را .

Ces neufs manuscrits ne présentent pas de différence essentielles de lecture. Une bonne copie ancienne nous aurait, peut-être permis d'élucider certains passages du texte qui nous sont demeurés obscurs.

IV. LA LANGUE

« Ibn Qunfuḏ, note Ben Cheneb, dans son article sur la *Fârisiya,* écrit très simplement et se rapproche parfois de la langue parlée à Constantine. » (7). Cette remarque vaut pour le *Uns.* On y

(7) « Hespéris », T. VIII, 1928, p. 40.

trouvera un certain nombre de tournures et de vocables vulgaires ou vulgarisants. Citons : داليـة (8) (vigne) ; مخـايد (9) au lieu de مخـاد (oreillers) ; صابـة (10) (moisson).

Le mot بـئـر (11) (puits) est traité comme étant du genre masculin ; كسـاء (12), au contraire, qui est du genre masculin en classique est traité comme un féminin.

On notera :

(13) ... ستة أشهر نـروم غسلها وما وجدت سبيلا ...
(14) ... لي أربعون سنة نقرىء المدونـة ...
(15) ... من حـين ناديتني وأنـا نتظرك
(16) ... وأعطني سرجك نـركب بهـا

Remarquons toutefois que ces formes de la conjugaison de l'arabe dialectal n'apparaissent sous la plume de l'auteur que lorsqu'il rapporte les propos d'une personne qui parle.

(8) *Uns*, p. 8.
(9) *Uns*, p. 68.
(10) *Uns*, p. 25.
(11) *Uns*, p. 86.
(12) *Uns*, p. 24.
(13) *Uns*, p. 24.
(14) *Uns*, p. 24.
(15) *Uns*, p. 46.
(16) *Uns*, p. 51.